

العوامل المؤثرة في صلات القبائل العربية مع بعضها قبل الإسلام

أ.م.د. زينب فاضل مرجان

جامعة بابل/ كلية التربية - صفى الدين الحلي

م.م. حيدر عامر هاشم صباح السلطاني

المقدمة

كان للحقبة السابقة للإسلام خصوصيتها المميزة من حيث المنحى والتوجهات السياسية حيث أن موطن العرب قبل الإسلام ذات صفة متباينة في المناخ والتضاريس وهذا الاختلاف جعل منه موطناً متعدد الخصائص وذا نظام معين، فضاقت شبه الجزيرة العربية عامة والحجاز خاصة على إمداد سكانها بأسباب العيش الرغيد فعاش العربي في أحضان طبيعة قاسية أنتجت أعرافاً وتقاليد أضحت قانوناً كاد يكون ثابتاً تسيّر عليه القبائل لرسم صورة صلاتها مع بعضها البعض.

وإن النظام السياسي في القبيلة العربية بشكل خاص وفي الجزيرة العربية بشكل عام قبل الإسلام لم يخضع لسلطان دولة ولم يكن له نظام موحد يسير عليه ويتبع قواعده وكان لطبيعة معيشتهم وقسوتها الأثر البالغ في ذلك فضلاً عن عدم وجود شخصية قوية تملك من المؤهلات وقوة البديهة واتساع الأفق ليكون قائد المجتمع العربي كما فعل الرسول محمد (ﷺ).

والعامل الأساس في رسم صورة الصلات بين هذه القبائل هو مجموعة من الأحكام والأعراف القبلية، منها العامل الاقتصادي والتعصب للقبيلة وما يترتب عليه من تبعات مثل الثأر، فضلاً عن حماية الجار، والمصاهرات، وما يلقيه الشعراء من أشعار، والعامل الديني وبعض التدخلات الخارجية، وقد يتدخل عامل واحد أو عدة عوامل في تشكيل طبيعة الصلات بين القبائل العربية، والأساس الذي تبني عليه القبيلة سياستها وتوجهاتها تجاه القبائل الأخرى هو مصلحة القبيلة وأفرادها المنتمين إليها، وعلى الرغم من ذلك فإن الطبيعة القاسية وقلة الموارد الاقتصادية الضرورية للحياة وتعذر تحقيق الاكتفاء الذاتي في القبيلة الواحدة وعدم استغناء الجماعات القبلية عن بعضها البعض قد دفعت هذه القبائل لإقامة صلات حسنة فيما بينها حيناً وعدائية حيناً آخر.

إلا أن الغالب على هذه الصلات بين القبائل هو التنازع والتناحر وانتشار الاضطراب السياسي والاقتصادي، وكان لقوة القبيلة وشدة مراسها وقدرتها على الغزو الأثر البالغ في رسم صورة صلاتها مع القبائل الأخرى ويتمثل ذلك في شعر زهير بن أبي سلمى إذ قال:

ومن لم يذ عن حوضه بسلاحه يهدم ومن لا يظلم الناس يظلم

ورغم ذلك فإن استخدام هذه القوة كان يحده التقيد بالأعراف والتقاليد والأحكام القبلية، ولأن حياة هذه القبائل قد طبعت بطابع الغزو والإغارة فإن كل واحدة منها معرضة للسبي والأسر والقتل لذلك كان لزاماً عليها إن كان لها النصر أن تتقيد بهذه الأعراف وإلا تعرضت للمعاملة بالمثل إن دارت عليها الدوائر.

وتضمن هذا البحث الموسوم بـ (العوامل المؤثرة في صلات القبائل العربية مع بعضها قبل الإسلام) ثمان عوامل أساسية في رسم صورة تلك الصلة رُتبت على أساس قوة أثرها في رسم الصلات بين تلك القبائل وأبرزها العامل الاقتصادي يليه العامل الاجتماعي التي ضم الثأر والديات والإجارة وحماية الجار والمصاهرات، والعامل الآخر هو الشعر يليه عامل الدين وختماً الباحث بأثر السياسة الخارجية في صلات القبائل العربية مع بعضها البعض.

وتوصل البحث إلى عدد من النتائج منها إن النظام القبلي في الحجاز فرضته البيئة القاسية، وعدم وجود نظام سياسي موحد ولم يعرف العربي قبل الإسلام الانتماء والولاء لمجتمع أكبر من قبيلته، وأكثر العوامل أثراً في الصلات بين القبائل هو العامل الاقتصادي والثأر واضعف العوامل هو الدين والسياسة الخارجية. وأفضل الوسائل للإصلاح والتقريب بين

القبائل هي المصاهرات والديات، وإن أكثر الصلات السيئة بين القبائل في الغالب تحدث لأسباب بسيطة ولكن من جراء العصبية القبلية تتطور إلى عداة وحروب بين القبائل لا سيما وأن أكثر الأيام تحدث بين بطون القبائل ولا تشترك فيها القبائل الكبيرة إلا نادراً. ومعظم الأيام والتحالفات تكون بين القبائل المتجاورة في منازلها جغرافياً، وأن اغلب التحالفات السياسية بين القبائل تتكون بحسب مصالح الفرقاء وواقعية المنحى لتفادي خسارة المعارك ولفترة قصيرة فضلاً عن أن هذه القبائل لا تجعل النسب إلى عدنان أو قحطان أساساً للتحالف أو القتال بل قد تتحالف قبيلة قحطانية مع أخرى عدنانية ضد قبيلة قحطانية أو بالعكس، ولم تكن سياسة أي قبيلة في الحجاز ثابتة وواضحة تجاه القبائل الأخرى بل اغلب سياسات تلك القبائل تتحكم فيها الظروف الطارئة، باستثناء قبيلة قريش التي كانت سياستها واضحة وثابتة على طول الخط ومع جميع القبائل.

العوامل المؤثرة في صلات القبائل العربية مع بعضها قبل الإسلام

إن النظام السياسي في القبيلة العربية بشكل خاص وفي الجزيرة العربية بشكل عام لم يخضع لسلطان دولة ولم يكن له نظام موحد يسير عليه ويتبع قواعده وكان لطبيعة معيشتهم وقسوتها الأثر البالغ في ذلك. ولطبيعة حياتهم المتمثلة بالطبيعة القاسية وقلة الموارد الاقتصادية الضرورية للحياة وتعذر تحقيق الاكتفاء الذاتي في القبيلة الواحدة وعدم استغناء الجماعات القبلية عن بعضها البعض قد دفعت هذه القبائل لإقامة صلات حسنة فيما بينها حيناً وعدائية حيناً آخر^(١). وكان لقوة القبيلة وشدة مراسها وقدرتها على الغزو الأثر البالغ في رسم صورة صلاتها مع القبائل الأخرى.

ورغم ذلك فإن استخدام هذه القوة كان يحده التقيد بالأعراف والتقاليد والأحكام القبلية، ولأن حياة هذه القبائل قد طُبعت بطابع الغزو والإغارة فإن كل واحدة منها معرضة للسبي والأسر والقتل لذلك كان لزاماً عليها إن كان لها النصر أن تتقيد بهذه الأعراف وإلا تعرضت للمعاملة بالمثل إن دارت عليها الدوائر، وسنبحث عن العوامل المؤثرة في الصلات بين القبائل بحسب أهمية هذه العوامل وهي كالتالي:

أولاً- العامل الاقتصادي:

كان العامل الاقتصادي ولا يزال من أهم العوامل التي ترسم طريق السياسة ليس للقبائل فحسب بل للدول الكبرى كذلك وبالنسبة للقبائل العربية فإن هذا العامل يتمثل باتجاهين أساسيين: الأول يشمل المنافسة للحصول على الماء والمراعي الخصبة والثاني حالات الإغارة والغزو من أجل الحصول على الغنائم، وبذلك فإن للبيئة وقلة الموارد أثر كبير في طبيعة تلك الصلات^(٢)، والذي ينظر لحياة العرب قبل الإسلام لاسيما سكان البادية يرى أنهم قد أُجبروا على خوض الحروب بسبب شطف العيش وقلة مورده بحيث أصبح الغزو والغارة على الآخرين شيئاً مألوفاً^(٣)، لا سيما إن حدود القبيلة أو حماها

(١) النص، إحسان، العصبية القبلية وأثرها في الشعر الأموي، دار اليعقبة العربية، بيروت، ص ٨١ .

(٢) خليف، الشعراء الصعاليك في العصر الجاهلي، ص ٩٠.

(٣) معاليقي، منذر، صفات مطوية من تاريخ عرب الجاهلية، دار ومكتبة الهلال، بيروت، ١٩٩٥م، ص ٥٦؛ النص، العصبية القبلية، ص ٧٤.

لم تكن محددة بصورة دقيقة^(١)، بل كان تعيين الحدود بين منازل القبائل بالظواهر الطبيعية البارزة مثل التلال والأودية والجبال وغيرها^(٢)، مما زاد في إرباك الوضع وتوتر الصلات بين القبائل.

وعلى الرغم من ذلك فلم تكن حياة القبائل البدوية ارتحالاً مستمراً أو ضرباً في الأرض على غير هدى وإنما كان لكل قبيلة منازلها ومراعيتها التي ترتادها في كل عام ومياهها الخاصة بها^(٣)، وكل قبيلة تتحامي قدر الإمكان النزول في مراعي القبائل الأخرى اتقاء لنشوب نزاع حربي، فالبدو إذن هي نمط من الحياة شبه منظم يلاءم مقتضيات البيئة التي يعيشون فيها^(٤)، وغالباً ما تسوء الصلات بين القبائل أيام القحط والجفاف، وفي هذه الأيام تتغلب القبائل الغنية على القبائل الفقيرة^(٥)، وكانت قد توالى على العرب قبل الإسلام سنون عجاف أصابت العرب فيها بالجوع وسوء الحال^(٦)، وخير مثال على أثر التقاتل على الماء والكأ في الصلات بين القبائل هو أن الماء كان أحد المحاور الكبرى لثمانية عشر يوماً من أيام العرب وارتبطت ارتباطاً وثيقاً بأسماء مواضع المياه أو نسبت إليها بسبب إصرار كل قبيلة للاستئثار بمنبع الماء أو الاحتماء به قبل المعركة^(٧).

فالماء والكأ عاملان أساسيان في تكوين الصلات بين القبائل العربية في الحجاز قبل الإسلام لأن التحكم في الماء في تلك البيئة القاسية يمثل أحد مظاهر القوة للقبيلة وهذه القوة كثيراً ما دفعت أصحابها إلى التسلط على القبائل الأخرى^(٨)، بل وصل الأمر إلى قيام تحالفات بين القبائل هدفها السيطرة على منابع الماء واغتصابها من أصحابها أو استرجاعه من غريم

(١) سليم، احمد أمين، جوانب من تاريخ وحضارة الجزيرة العربية في العصور القديمة، دار المعرفة، الجامعية، الإسكندرية، ٢٠٠٩م، ص ٣٠٣.

(٢) ينظر: اليعقوبي، احمد بن ابي يعقوب بن جعفر بن وهب، البلدان، تح: محمد أمين ضناوي، دار الكتب العلمية، بيروت، ٢٠٠٢م، ص ١٥ وما بعدها؛ الهمداني، الحسن بن أحمد بن يعقوب، صفة جزيرة العرب، تح: محمد بن علي الأكوخ، مكتبة الإرشاد، صنعاء، اليمن، ١٩٩٠م، ص ٢٥ وما بعدها؛ البكري عبد الله بن عبد العزيز الأندلسي، معجم ما استعجم من أسماء البلاد والمواقع، تح: جمال طلبة، دار الكتب العلمية، بيروت ج ١، ص ١٥ وما بعدها.

(٣) النص، العصبية القبلية، ص ٥٦.

(٤) المصدر نفسه، ص ٥٦.

(٥) بروكلمان، كارل. تاريخ الشعوب الإسلامية، ط ٥، ترجمة، نبيه أمين فارس، منير البعلبكي، دار العلم للملايين، بيروت، ١٩٦٨م، ص ٢٠.

(٦) الجميل، محمد بن فارس، الأطعمة والأشربة في عصر الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم)، مطبعة مجلس النشر العلمي، الكويت، ١٩٩٧م، ص ٢٦؛ عبد الرحيم، محمد، ديوان حاتم الطائي، دار الراتب الجامعية، بيروت، ٢٠٠٨م، ص ٤٦.

(٧) ينظر: ابن عبد ربه، احمد بن محمد الأندلسي، العقد الفريد، تح: محمد عبد القادر شاهين، المكتبة العصرية، بيروت، بيروت، ٢٠٠٩م، ج ١، ج ٦، ص ٨ وما بعدها؛ ابن الاثير، علي بن أبي الكرم محمد بن عبد الواحد، الكامل في التاريخ، تح: عمر عبد السلام تدمري، دار الكتاب العربي، بيروت، ٢٠٠٦م، ج ١، ص ٤٥٤ وما بعدها.

(٨) سلامة، عبد الحميد، قضايا الماء عند العرب قديماً، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ٢٠٠٢م، ص ٩٩.

قوي^(١)، إلا أن هذا النوع من التحالفات مؤقت في الغالب فمتى انقضت المصلحة أو تلاكأ أحد الطرفين في تنفيذ شروطه انفض الحلف^(٢).

وقد تسمح قبيلة لأخرى بارتياح مراعيها معها مما يحسن الصلات بينهما إلا أن ذلك في الغالب لن يدوم طويلاً حتى ينشب النزاع بين الطرفين^(٣)، والسائد أن كل قبيلة تدافع عن أرضها ومنابع مياهها وهي مستعدة لسفك دم كل من يتعرض لها^(٤)، وبلغ من قوة أثر هذا الأمر في نهاية عصر قبل الإسلام ومجيء الإسلام أن تطلب تشريعاً إسلامياً لتنظيم أمور الماء والكلأ ومنع القتال عليهما ومنها قول الرسول محمد^(٥) (ﷺ): ((الناس شركاء في ثلاث الماء والكلأ والنار)).

والقبائل في ذلك كله قبل الإسلام تحترم القوي وقوة القبيلة أحد أهم المرتكزات الأساسية في تحديد صلاتها مع القبائل الأخرى فأن حماها محمية من قبل فرسانها ولكنها مقابل ذلك تغير على القبائل الأخرى الأضعف منها وتستولي على أنعامها وترعى في أرضها ومراعيها وجاء ذلك بقول^(٦) النابغة الذبياني^(٧):

تعدو الذئاب على من لا كلاب له وتنتقي مريض المستنفر الحامي

ومن الشائع في ذلك الوقت بأن من لم يزد عن حوضه بسلاحه يهدم^(٨)، أما عن مسألة الغزو والغارة على القبائل الأخرى وأثرها في الصلات بين القبائل فيلخصها ابن خلدون^(٩) بقوله: ((العدوان أكثر ما يكون... من الساكنين بالفقر كالعرب...))

(١) مثال ذلك التحالف الذي حدث بين بني مازن مع بني يربوع من أجل اقتسام ماء الوقي ومنع بكر من الوصول إليه ثم تطور الأمر إلى قيام حرب بين بني مازن وبني يربوع انتهى بانتصار بني مازن واستيلاءهم على الماء. ينظر: سلامة، قضايا الماء عند العرب، ص ١٠٠.

(٢) علي، جواد، المفصل في تاريخ العرب قبيل الإسلام، أوند دانس، د. م، ٢٠٠٦م، ج ١، ص ٤٠٦.

(٣) ابن الأثير، الكامل في التاريخ، ج ١، ص ٥٤٠-٥٤١.

(٤) ضيف، شوقي، العصر الجاهلي، سليمان زاده، قم، ٢٠٠٦م، ص ٦٠؛ سليم، جوانب من تاريخ وحضارة الجزيرة العربية العربية في العصور القديمة، ج ١، ص ٣٠٣.

(٥) الشافعي، محمد ابن إدريس، كتاب الأم، ط ٤، دار الفكر، بيروت، ١٩٨٣م، ج ٤، ص ٣؛ أبي عاصم، أبي بكر بن أحمد بن عمرو، كتاب الديات، تح: عادل حسن علي، مؤسسة المختار، القاهرة، ٢٠٠٥م، ص ٦٠-٦٢؛ السرخسي، شمس الدين، المبسوط، تح: محمد الشيباني وآخرون، دار المعرفة، بيروت، ١٩٨٥م، ج ٢، ص ٢١٢؛ النراقي، أحمد بن محمد المهدي، مستند الشريعة في أحكام الشيعة، تح: مؤسسة أهل البيت (عليهم السلام) لإحياء التراث، مشهد، ١٩٨٤م، ج ١٤، ص ٣٠٧.

(٦) الجوهري، إسماعيل بن حماد، تاج اللغة وصحاح العربية، ط ٤، تح: أحمد عبد الغفور عطار، دار العلم للملايين، بيروت، ١٩٨٧م، ج ٢، ص ٦٠٥؛ القرطبي، محمد بن احمد الأنصاري، الجامع لأحكام القرآن، ط ٢، دار أحياء التراث العربي، بيروت، ١٩٨٥م، ج ٢، ص ٢٩؛ ابن منظور، محمد بن مكرم، لسان العرب، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ١٩٨٤م، ج ٤، ص ١٠٥؛ المزي، جمال الدين أبي الحجاج يوسف، تهذيب الكمال في أسماء الرجال، ط ٣، تح: بشار عواد معروف، مؤسسة الرسالة، بيروت، ١٩٨٨م، ج ٤، ص ٢٨٠؛ الزبيدي، محمد مرتضى، تاج العروس من جواهر القاموس، مكتبة الحياة، بيروت، د. ت، ج ٣، ص ٧٧؛ الزركلي، خير الدين، الأعلام، دار العلم للملايين، بيروت، ١٩٨٠م، ج ٣، ص ٤١.

(٧) هو زياد بن معاوية بن ضباب بن جابر بن يربوع بن غيظ من ذبيان الغطفانية. ينظر: ابن حزم، علي بن أحمد بن سعيد الأندلسي، جمهرة أنساب العرب، تح: عبد السلام هارون، دار المعارف، القاهرة، ١٩٩٩م، ص ٢٥٢-٢٥٣.

وأشباههم لأنهم جعلوا أرزاقهم في رماحهم ومعاشهم فيما في أيدي غيرهم ومن دافعهم عن متاعه آذنه بالحرب ولا بغية لهم فيما وراء ذلك من رتبة ولا ملك وإنما همهم ونصب أعينهم غلب الناس على ما في أيديهم)).

وقيل: (٣) إن الذي دفع العرب لذلك هو لأن العمل في تلك البيئة الشاقة أصبح غير مثمر لاسيما في حياة البدو فحياتهم تعرف الكدح الكثير ولكنها تضيع ثمرته.

وبذلك فيمكن اعتبار الإغارة في سبيل الغنيمة ضرورة من ضرورات الحياة ألجأتهم إليها قسوة طبيعتهم وقلة الخيرات وأسباب الرزق في بيئتهم وهو صورة من صور تنازع البقاء في مجتمع فقير تنتافر وحداته ويسعى كل واحد منها لتحقيق منفعتة الذاتية^(٤)، وهذا يوافق رأي الألوسي^(٥) بأن أرزاق العرب قبل الإسلام كانت في رماحهم ومن منعهم ذلك آذنه بالحرب، في حين يرى حتى^(٦): أن حب القتال استولى على نفوس أهل البوادي وأصبحت الغارة نموذجاً للأعمال الرجولية ولم يقتصر ذلك على الأعداء بل على القبائل المتقاربة.

وبالغت المستشرقة نينا^(٧) بوصفها تأصل عادة الإغارة في نفوس العرب بقولها: ((أنها أصبحت حرفة أسوة بغيرها من الحرف، بعد أن كانت تشن من أجل الحصول على الأراضي الصالحة للرعي وسد حاجات القبيلة الأساسية وتوفير علف لحيواناتها))، وبلغ من قوة أثر العامل الاقتصادي بين القبائل من أن بعضها كان يدخل في حلف مع طرف آخر ليس لعداوة للقبيلة المقابلة بل من أجل الحصول على الغنيمة فقط^(٨)، وتعدى الأمر في ذلك للقتال بين بطون القبيلة الواحدة من أجل الغنيمة^(٩)، والقبائل العربية بصورة عامة كانت تحب أن تكون ظالمة غير مظلومة فقد شاع عند بعضهم قبل الإسلام قول: ((رهبوت خير من رحموت))^(١٠).

(١) المجلسي، محمد باقر، بحار الأنوار الجامعة لدرر أخبار الأئمة الأطهار، ط٢، تح: مؤسسة الوفاء، مؤسسة الوفاء، بيروت، ١٩٨٣م، ج٣٢، ص٤٠٤؛ الشاهرودي، علي النمازي، مستدرک سفينة البحار، تح: حسن بن علي، مؤسسة النشر الإسلامي، قم، ١٩٩٨م، ج٣، ص٤٥٩.

(٢) عبد الرحمن بن محمد الحضرمي، مقدمة ابن خلدون، دار أحياء التراث العربي، بيروت، ١٩٩٩م، ج١، ص٢٧١.

(٣) خليف، الشعراء الصعاليك، ص٧١.

(٤) العلي، صالح أحمد، تاريخ العرب القديم والبعثة النبوية، ط٢، شركة المطبوعات للتوزيع والنشر، بيروت، ٢٠٠٣م، ص١٩٥؛ النص، العصبية القبلية، ص٨١.

(٥) محمد شكري الألوسي، بلوغ الأرب في معرفة أحوال العرب، تح: محمد بهجت الأثري، دار الكتب العلمية، بيروت، ٢٠٠٩م، ج٢، ص٥٥.

(٦) تاريخ العرب، ص٥٣.

(٧) بيغوليفسكا فكتورفنا، العرب على حدود بيزنطة وإيران من القرن الرابع إلى القرن السادس الميلادي، ترجمة، صلاح الدين عثمان هاشم، قسم التراث العربي، الكويت، ١٩٨٥م، ص٢٩٢.

(٨) الواقدي، محمد بن عمر المغازي، تح: مارسدن جونسن، مكتب الإعلام الإسلامي، قم، ١٩٩٧م، ج١، ص٤٧٧؛ ابن قتيبة، عبد الله بن مسلم، المعارف، تح: ثروت عكاشة، شريعت، قم، ٢٠٠٧م، ص٦٠٣-٦٠٤؛ ابن الأثير، الكامل في التاريخ، ج١، ص٥١٨.

(٩) البكري، مع ما استعجم، ج٣، ص٩٢، ابن الأثير، الكامل في التاريخ، ج١، ص٥٧٩.

(١٠) الصدوق، محمد بن علي بن الحسين، التوحيد، تح: هاشم الحسيني الطهراني، مؤسسة النشر الإسلامي، قم، ١٩٦٧م، ص٢١٠؛ الراغب الأصفهاني، الحسين بن محمد، المفردات في غريب القرآن، نشر الكتاب، قم، ١٩٨٣م، ص٢٠٤؛ ابن منظور، لسان العرب، ج١، ص٤٣٦؛ المجلسي، بحار الأنوار، ج٤، ص٢٠٠؛ الجزائري، نعمة الله

ثانياً- العامل الاجتماعي

أ- الثأر:

ذكرنا بأن ما تسير عليه القبائل في صلاتها مع القبائل الأخرى هو مجموعة من الأعراف والأحكام والتقاليد، والثأر أحد أقوى هذه الأعراف وهو يرتبط ارتباطاً وثيقاً بالعامل الاقتصادي حيث تُخلف عمليات القتال على الماء والكأ والإغارة من أجل الغنيمة قتلى ودماء بين القبيلتين وهذا بطبيعة الحال يؤدي إلى توتر الصلات بين القبائل المتناحرة ويؤجج الصراع بينها حتى يصل إلى المغالاة في سفك الدماء^(١).

والذي جعل للثأر هذا التأثير في رسم شكل الصلات بين القبائل هو انعدام السلطة الموحدة أو القانون الجنائي فمن يقتل له أخ أو قريب فعليه أن يثأر له بنفسه^(٢) أو مع قبيلته وفي كثير من الأحيان فأن الثأر يتولد عنه الرغبة في الانتقام ومن ثم ثأر جديد^(٣)، وفي مثل هذه الحالات قد يستمر العداة سنين طويلة تتجدد فيها المنازعات وتُسفك فيها الدماء^(٤)، والعرب في طلبهم للثأر يختارون في بغيتهم أن يكافئ دم المقتول بدم من قتله في المنزلة والدرجة والمكانة، فدم السيد لا يكافئه إلى دم سيد مثله، وغاية الأمر في ذلك ردع سادات القبائل عن تحريض العبيد أو غيرهم على قتل خصومهم وأعدائهم وبذلك فهو عنصر ردع للحد من غلواء البعض وتقييد لنزعاتهم واندفاعاتهم العدوانية^(٥)، ويرى ابن خلدون^(٦) بأن الحروب التي تقوم على الثأر في الأغلب تكون بين القبائل المتجاورة والعشائر المتناحرة، وبلغ من قوة الثأر في نفوس الأعراب قبل الإسلام إن قيل لأحدهم: ((أيسرك أن تدخل الجنة ولا تسيء إلى من أساء إليك؟ فقال: بل يسرنى أن أدرك الثأر وأدخل النار))^(٧).

الموسوي، نور البراهين في أخبار السادة الطاهرين، تح: السيد الرجائي، مؤسسة النشر الإسلامي، قم، ١٩٩٦م، ج ١، ص ٥٠٢.

(١) من ذلك ما فعلته قبيلة أشجع ببني عامر بن صعصعة في يوم الرقم حيث ذبحوا منهم سبعين أسيراً لوقعة أوقعتها بنو عامر بهم. ينظر: ابن الأثير، الكامل في التاريخ، ج ١، ص ٥٧٣. وكذلك بالغ بنو تميم في الأخذ بثأرهم من بني عبد يغوث في يوم الكلاب الثاني. ينظر: البصري، معمر بن المثنى التيمي، نقائص جرير والفرزدق، ط ٢، تح: محمد احمد عبد العزيز سالم، دار الكتب العلمية، بيروت، ٢٠٠٧م، ج ٢، ص ص ١١١-١١٤؛ إبراهيم، محمد أبو الفضل، البجاوي، علي محمد، أيام العرب في الجاهلية، دار الجبل، بيروت، ١٩٨٨م، ص ص ١٢٤-١٢٨.

(٢) بروكلمان، تاريخ الشعوب الإسلامية، ص ١٩؛ حتي، فيليب، وآخرون، تاريخ العرب، ط ١٢، تح: جبرائيل جبور، دار الكشاف، بيروت، ٢٠٠٧م، ص ٥٥.

(٣) بروكلمان، تاريخ الشعوب الإسلامية، ص ١٩؛ عبد الله، شهلة برهن، الدعوة الإسلامية وحياة البداوة منذ البعثة وحتى حروب الردة، دار الكتب العلمية، بيروت، ٢٠٠٨م، ص ٢٧.

(٤) البيزكي، مؤيد، البطولة في الشعر العربي قبيل الإسلام، دار الشؤون الثقافية العامة، بغداد، ٢٠٠٨م، ص ٨٨.

(٥) البيزكي، البطولة في الشعر العربي، ص ٨٨.

(٦) المقدمة، ج ١، ص ٢٧١.

(٧) النويري، نهاية الأرب، ج ٩، ص ٦٢.

وفاق أثر الثأر في الصلوات بين القبائل على اثر الدين والشاهد على ذلك حدوث حروب وأيام بسبب الثأر في (الأشهر الحرم)^(١) على الرغم من أن الكثير من القبائل كانت تُحرم القتال في هذه الأشهر^(٢)، وكانت عملية المطالبة بدم المقتول منوطة بالدرجة الأساس برأس سيد القبيلة يقف وراءه جميع أفراد قبيلته^(٣) ليس الرجال فقط بل حتى النساء حيث كُن في الغالب يحرض أفراد قبيلتهن ويُعيرن القاعد والمتعاس^(٤)، ولا يقتصر الأمر في هذه المسألة على المطالبة بدم من يُقتل منها بل أنها تهب للدفاع عن أي فرد من أفراد قبيلتها إن قام بالاعتداء وقتل شخصاً من قبيلة أخرى سواء كان على حق أم باطل فقد شاع عندهم قول: ((أنصر أخاك ظالماً أو مظلوماً))^(٥)، والذي دعا القبائل وأفرادها للتمسك بأخذ الثأر إضافة إلى ما ذكرناه سابقاً هو سيادة الاعتقاد عندهم بأن الشخص إذا قُتل ولم يؤخذ بثأره فإن طائراً يخرج من رأسه يسمى (الهامة)^(٦) ويظل يصيح أسقوني حتى يُؤخذ بثأره^(٧). وبذلك فيمكن القول بأن الثأر عند الجاهليين كان قد أضحى شريعة وقانوناً وقائماً لا بد منه لأنه وسيلة رادعة يشعر البدوي في ظلّه بالأمن ويجعل القبيلة لا تغالي في عدائها للقبائل الأخرى، وعلى الرغم من ذلك فقد كانت بعض القبائل تغالي في إظهار عداوتها للقبيلة التي لها فيها ثأر، تصل لدرجة قتل الأطفال^(٨)، والتمثيل بجثث القتلى^(٩).

ومما سبق ذكره نجد بأن لمسألة الثأر أثر كبير في صلوات القبائل مع بعضها البعض لدرجة أنه كان في نهاية عصر الجاهلية وبداية الإسلام يهدد النظام العام لذلك نجد الإسلام يعالج هذه المسألة الخطيرة كما عالج غيرها من المسائل السلبية فقد جاء في معنى قول الرسول المصطفى محمد (ﷺ) في (حجة الوداع)^(١٠) أنه قد وضع جميع الدماء والثارات التي كانت في الجاهلية فلا يحق لأحد أن يطالب فيها^(١١).

- (١) كان العرب قبيل الاسلام يحرمون القتال في أربعة أشهر ويسمونهم الأشهر الحرم وهي رجب وذو القعدة وذو الحجة والمحرم. ينظر: الزبيدي، تاج العروس، ج ٨، ص ٢٤١، وسمى العرب الحروب التي حدثت في هذه الأشهر بحروب الفجار. ينظر: ابن الأثير، الكامل في التاريخ، ج ١، ص ٥٢٣.
- (٢) ابن الأثير، الكامل في التاريخ، ج ١، ص ص ٥٢٧ - ٥٣٢؛ يحيى، لظفي عبد الوهاب، العرب في العصور القديمة، ط ٢، دار المعرفة الجامعية، الإسكندرية، ٢٠٠٧م، ص ٣٠٧.
- (٣) دلو، برهان الدين، جزيرة العرب قبيل الإسلام، دار الفارابي، بيروت، ٢٠٠٧م، ص ١٦٥؛ النص، العصبية القبلية، ص ١٢٢.
- (٤) النويري، نهاية الأرب، ج ٩، ص ٦٢؛ يحيى، العرب في العصور القديمة، ص ٣٠٧.
- (٥) الفراهيدي، الخليل بن احمد، كتاب العين، ط ٢، تح: مهدي المخزومي و إبراهيم السامرائي، مطبعة الصدر، النجف، ١٩٨٨م، ج ٧، ص ٨؛ ابن حزم، علي بن احمد بن سعيد، المحلى، تح: احمد محمد شاكر، دار الفكر، بيروت، د.ت، ج ١١، ص ٩٠.
- (٦) الهامة: قيل أن الدماغ هو الهامة أو أعلى الرأس. ينظر: الزبيدي، تاج العروس، ج ١٠، ص ٢٠٧.
- (٧) الربيعي، فاضل، شقيقات قريش، رياض الريس للكتب والنشر، بيروت، ٢٠٠٢م، ص ٩٢.
- (٨) من ذلك ما فعلته فزاره عندما قامت بقتل أطفال قبيلة عيس الذين كانوا عندهم رهناً طلباً لثأرهم رغم صلة القرابة التي تربط القبيلتين فكلاهما من غطفان. ينظر: ابن الأثير، الكامل في التاريخ، ج ١، ص ٥١٩.
- (٩) الزبيدي، تاج العروس، ج ٢، ص ٤٥٣.
- (١٠) حجة الوداع: هي آخر حجة حجها، رسول الله (صلى الله عليه واله وسلم) سنة ١٠ هـ. ينظر: ابن حبيب، محمد بن حبيب، المحبر، مطبعة دائرة المعارف الإسلامية، القاهرة، م، د. ت، ص ١٢.
- (١١) أبي عاصم الدييات، ص ٩٨؛ ابن حبيب، محمد بن حبيب، المنق في أخبار قريش، تح: خورشيد أحمد فاروق، عالم الكتب، بيروت، د. ت، ص ١٩٧.

ب-الديّات:

من العوامل الجيدة التي اتخذتها القبائل العربية لتحسين صلاتها مع بعضها البعض وإطفاء نائفة الحرب وسفك الدماء هي مسألة الدية^(١)، وقيل أن (عبد المطلب)^(٢) أول من جعل دية القتيل مائة من الإبل بعد كانت عشرة^(٣) وقيل أن (عامر) (عامر بن الضرب العدواني)^(٤) هو الذي جعل الدية مائة من الإبل بعد أن كانت مائة جدي^(٥)، وبلغ من محاسن هذه العملية في تحسين العلاقات بين القبائل أن أقرها الإسلام في شريعته السماح بعد أن أجرى بعض التعديلات عليها بأن جعلها متساوية فلا فرق بين إنسان وآخر^(٦)، بعد أن كان العرب قبل الإسلام يفرقون بين الناس بالديّات، فكانت دية الحليف الحليف نصف دية ابن القبيلة الصريح^(٧) وبعضهم جعل دية الصريح عشرة من الإبل ودية الحليف خمسة منها^(٨)، ومع ذلك وما للدية من محاسن في إطفاء نار الحروب إلا أن أغلب القبائل كانت ترفض أخذ الدية^(٩)، لأن من يقبل الدية يعد في نظرهم ضعيفاً غير قادر على الأخذ بثأره^(١٠)، فأصبح في عرفهم أن الدم لا يغسله إلا الدم^(١١).

وكثيراً ما كانت تفشل الجهود التي تبذلها بعض الأطراف من أجل ردم الصدع وتحسين العلاقات بين القبائل^(١٢)، والبعض منهم كان يشترط لقبول الدية شروطاً تعجيزية^(١٣)، وفي الغالب فان مسألة قبول الدية تكون في حالة وجود الأسرى مثلاً وعدم وجود ثأر أو في أحوال معينة كوضع حد لحرب طال أمدها^(١٤) أو حقناً لدماء حيين من قبيلة واحدة^(١٥) أو

(١) وذكر الكلبي بأن أول دية كانت في العرب هي مائة من الإبل دفعها أسد بن خزيمه عندما قتل أخوه مالك أخوه الآخر الآخر من أمه علي بن مسعود. ينظر: ابن الكلبي، هشام بن محمد بن السائب، جمهرة النسب، تح: ناجي، حسن، عالم الكتب، بيروت، ٢٠٠٤م، ص ١٣٥.

(٢) هو عبد المطلب بن هاشم بن عبد مناف بن قصي جد الرسول محمد (صلى الله عليه وآله وسلم). ينظر: الزبير، المصعب بن عبد الله المصعب، كتاب نسب قريش، تح: إ. ليفي بروفنسال، شريعت، قم، ٢٠٠٧م، ص ١-١٧.

(٣) أبي عاصم، الديّات، ص ١٠.

(٤) هو عامر بن الضرب بن عمرو بن عياد بن يشكر بن عدوان من حكام العرب قبيل الإسلام. ينظر: ابن حزم، جمهرة جمهرة أنساب العرب، ص ٢٤٣.

(٥) المصدر نفسه، ص ٢٦٤.

(٦) الترمذي، محمد بن عيسى بن سورة، سنن الترمذي، دار إحياء التراث العربي، بيروت، د. ت، ص ١١١-١١٢.

(٧) ابن منظور، لسان العرب، ج ٥، ص ٤٦.

(٨) التوحيدي، أبو حيان، الامتاع والمؤانسة، تح: أحمد أمين و أحمد الزين، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر، القاهرة، ١٩٣٩، ج ٢، ص ٢٧.

(٩) ابن عاصم، الديّات، ص ١٤٤؛ التوحيدي، الامتاع والمؤانسة، ج ٢، ص ٢٨.

(١٠) ابن الأثير، الكامل في التاريخ، ج ١، ص ٥١٦؛ الألويسي، بلوغ الأرب، ج ٣، ص ٢٠.

(١١) الزبيدي، تاج العروس، ج ١، ص ٤٦.

(١٢) ابن الأثير، الكامل في التاريخ، ج ١، ص ٥١٦ - ٥١٨.

(١٣) مثال ذلك ما يسمى التعقيقة، وهو أن أولياء المقتول يقولون نأخذ سهماً فنرميه نحو السماء فإذا رجع مضرراً بالدم فأمرنا أن نأخذ الدية وإذا نزل كما سعد فقد نهينا عن ذلك. للمزيد ينظر: الألويسي، بلوغ الأرب، ج ٣، ص ١-٢٠.

(١٤) مثال ذلك الصلح الذي حدث بين عبس وذبيان حين اصطلحوا على دفع الدية بعد أن طال أمد الحرب بينهم وأضعفتهم. ينظر: ابن الأثير، الكامل في التاريخ، ج ١، ص ٥٠٩ - ٥٢٢.

(١٥) للمزيد ينظر: ابن الأثير، الكامل في التاريخ، ج ١، ص ٥٨٣-٦٠٣.

عجز عن إدراك الوتر من قوم القاتل^(١) وكان هناك مجال آخر لتحسين الصلات بين القبائل ودفع الحرب وهو تسليم القاتل القاتل طوعاً إلى أولياء المقتول ليقبلوه وعندئذ لا يبقى مجال للنأر ولكن هذا ما كان يحدث إلا نادراً لأن ذلك يعتبر وصمة عار للقبيلة فهي تُفضل أن تقتل الجاني على أن تسلمه طوعاً فيلحق بها العار^(٢)، وكانت بعض القبائل وحرصاً منها على سلامة أفرادها وعدم الدخول في حروب مع القبائل الأخرى أو لعدم قدرتها على مواجهة القبائل الأخرى تقوم بخلع فرد ما منها إذا كثرت جرائمه لأنه يؤدي إلى كثرة أعداء القبيلة^(٣).

ت - الإجارة^(٤) وحماية الجار:

وهذا العامل من العوامل التي فرضتها الطبيعة القاسية مثله مثل من سبقه من العوامل، لأن المسافر في الصحراء يحتاج أن جنّ عليه الليل أو دهمه خطر بأن يجيره أحد وإلا فأن التنقل في الصحراء يصبح من الأمور المستحيلة وبما أن الجميع معرضون لمثل هذا الموقف وحتى يعامل بالمثل وغيره من الأسباب شاع نظام الإجارة وحماية الجار قبل الإسلام وأصبح من الأمور التي لها أثر في توجهات القبائل وتحديد سياستها تجاه القبائل الأخرى، وحق الجوار لا يقتصر على شخص معين في القبيلة بل هو حق لجميع أفرادها وأن أجاز شخص ما شخصاً آخر أصبحت قبيلته ملزمة بحمايته وحفظه^(٥) والنساء من أبناء القبيلة شأنها شأن الرجال لها حق الإجارة^(٦)، والجوار يتم وفق تقاليد متعارف عليها كأن يستظل يستظل بخبائه أو يمسك طرف خيمته أو ثوبه أو أن يأكل من طعامه^(٧)، والعرب تقول: ((لا يكون الجوار جواراً حتى تبلغ جارك مأمته أو تقتل دونه))^(٨)، وكانت العرب تعيب من لم يحمي جاره ويغفر ذمته^(٩).

والصلة بين الجار والمجير تختلف وفقاً لتعهد المجير لمن استجار به فكانت الإجارة مؤقتة أحياناً ودائمة بل وراثية حيناً آخر، وفي بعض الحالات كان المجير يتعهد بأن ينصر جاره على عدو معين فقط وفي حالات أخرى كان يتعهد بإجارته من كل الأعداء^(١٠)، وبذلك فيعد هذا العرف مفخرة من المفاخر التي يفتخر العرب بها فيقال فلان منيع الجار أو حامي الجار^(١١) ويتغلب الجوار في بعض الحالات على عامل الدين فيجبر أحدهم شخصاً آخر وأن عارضه في معتقده

(١) النص، العصبية القبلية، ص ٨٣.

(٢) بروكلمان، تاريخ الشعوب الإسلامية، ص ١٩.

(٣) ابن حجر العسقلاني، احمد بن علي بن محمد، فتح الباري بشرح صحيح البخاري، ط ٢، دار المعرفة للطباعة والنشر، والنشر، بيروت، د. ت، ، ج ١٢، ص ٢١٣؛ الزبيدي، تاج العروس، ج ٥، ص ٦.

(٤) هي حماية شخص لآخر استجار به ولجأ إليه فيعطيه عهداً وذمة فيكون جاره يجيره ويحميه. ينظر: ابن منظور، لسان لسان العرب، ج ٣، ص ١١٣.

(٥) الفراهيدي، كتاب العين، ج ٤، ص ٢٥٤؛ ضيف، العصر الجاهلي، ص ٦١.

(٦) كما أجازت ربيعة بنت جندل دريد بن الصمة، وجماعة بنت عوف بن محلم الشيباني التي أجازت مروان بن زبياع العبسي. ينظر: ابن عبد ربه، العقد الفريد، ج ٦، ص ٣٤.

(٧) النص، العصبية القبلية، ص ٨٦-٨٧.

(٨) أبي تمام، نقائض جرير والأخطل، تح: أنطوان صالحاني اليسوعي، دار الكتب العلمية، بيروت، د. ت، ص ١١.

(٩) الفراهيدي، كتاب العين، ج ٤، ص ٢٥٤.

(١٠) خليف، الشعراء الصعاليك، ص ٩٦.

(١١) ابن عبد ربه، العقد الفريد، ج ١، ص ١٠٦؛ التميمي، النعمان بن محمد، شرح الأخبار في فضائل الأئمة الأطهار، تح: محمد الحسيني الجليلي، مؤسسة النشر الإسلامي، قم، د. ت، ج ٢، ص ٣٨٣؛ الطبرسي، حسين النوري، خاتمة مستدرك الوسائل، تح: مؤسسة آل البيت عليهم السلام لإحياء التراث، ستاره، قم، ١٩٩٥م، ج ٣، ص ٢٣٢.

الديني وأن كانت بينهما خصومة أو عداوة^(١)، وللعرب في حفظ الجوار صور تثير العجب والدهشة تصل إلى حد أن يقتل يقتل أحدهم أخاه وفاءً لجاره^(٢) أو أن يُقتل ابنه أمام عينه فلا يغفر ذمته^(٣)، ولهذا العامل أي الجوار أثر كبير في توتر العلاقات بين القبائل يصل في بعض الأحيان لحد القطيعة بل الدخول في حرب وتعريض القبيلة للقتل والسبي^(٤). وإن من القبائل من تنقسم على نفسها بسبب مسألة الجوار فيخرج منها بطن ويحالف قبيلة أخرى^(٥)، بل قد تتعداها إلى القتال بين بطون القبيلة الواحدة كما حدث في حروب الأوس والخزرج التي كان سببها قتل أحد جيران مالك بن العجلان الخزرجي من قبل رجل من الأوس^(٦).

وكانت بعض القبائل ترد طلب اللجوء إليها عندما تجد نفسها غير قادرة على حماية من طلب ذلك، حتى لا يلحقها العار إن قُتل في جوارها، أو لأن هذا الجوار قد يجرها إلى حرب لا طاقة لها بها، فتؤدي إلى إنهاكها سياسياً واقتصادياً، كما رفضت قبائل العرب إجارة خالد بن جعفر بن كلاب بن ربيعة^(٧) خشية من قوة عبس^(٨) ويطشها^(٩)، إلا أن بعض

(١) كما فعل المطعم بن عدي وهو لا يزال جاهلي لم يدخل الإسلام حين أجاز رسول الإنسانية محمد (صلى الله عليه وآله وسلم) عند عودته من الطائف مع ما كان بينهما من الاختلاف في الدين والمذهب. ينظر: ابن كثير، أبي الفداء إسماعيل بن عمر بن كثير، البداية والنهاية، تح: سهيل زكار، دار صادر، بيروت، ٢٠٠٥م، ج ٣، ص ٧٠٢؛ البحراني، هاشم بن سليمان بن إسماعيل بن عبد الجواد الحسيني، حلية الأبرار في أحوال محمد وآله الأطهار، تح: غلام رضا، بهمن، قم، ١٩٩٠م، ج ١، ص ٣٤٥؛ العاملي، جعفر مرتضي، الصحيح من سيرة النبي الأعظم (صلى الله عليه وآله وسلم)، ط ٤، دار الهادي، بيروت، ١٩٩٥م، ج ٣، ص ٢٦٧.

(٢) السكري، الحسن بن الحسين، شرح أشعار الهذليين، تح: خالد عبد الغني محفوظ، دار الكتب العلمية، بيروت ٢٠٠٦م، ج ١، ص ٢٤٢؛ المسعودي، التنبيه والأشراف، تح: عبد الله إسماعيل الصاوي، دار الصاوي، قم، د. ت، ص ٢٠٩.

(٣) كان السموأل بن عادي وهو من الأوفياء قد رفض أن يغفر ذمته وأن يسلم الأمانة التي أودعها عنده امرؤ أقيس للحارث بن شمر الغساني وهي مائة درع بالرغم من أن الحارث قد هدده بقتل ابنه ونفذ تهديده إلا أن السموأل رفض إعطائه الأمانة التي عنده. ينظر: ابن الأثير، الكامل في التاريخ، ج ١، ص ٤٦٩.

(٤) فقد كانت معركة ذي قار بسبب إجارة هاني بن مسعود الشيباني أهل النعمان بن المنذر وأمواله واشتركت في هذه المعركة عدة قبائل عربية منهم قوم أياس بن قبيصة الطائي وبنو شيبان. ينظر: ابن الأثير، الكامل في التاريخ، ج ١، ص ص ٤٤١-٤٤٢.

(٥) مثال ذلك هو خروج مالك بن فهم بن غنم بن دوس إلى أزد شنوءة في السراة بسبب أن بني أخته كانوا قد قتلوا كلباً لجاره وكانوا أكثر منه عدداً وقوة. ينظر: الجاحظ، عمر بن بحر بن محبوب، كتاب الحيوان، تح: إيمان الشيخ محمد وغرير الشيخ محمد، دار الكتاب العربي، بيروت، ٢٠٠٨م، ج ١، ص ٢٠٢.

(٦) للمزيد، ينظر: ابن الأثير، الكامل في التاريخ، ج ١، ص ص ٥٨٣-٥٨٧.

(٧) خالد بن جعفر بن كلاب بن ربيعة، من قادة قبيلة هوازن القحطانية قبيل الإسلام ومن الذين عُرفوا بالشجاعة وهو قاتل قاتل زهير بن جذيمة العبسي. ينظر: ابن حبيب، المحبر، ص ٢٤٩.

(٨) عبس، هم بنو عبس بن بغيض بن ريث بن غطفان بن سعد بن قيس عيلان. ينظر: ابن الكلبي، جمهرة النسب، ص ص ٤١٣-٤٤٠.

العرب بالغ في مسألة الجوار حتى كان يجبر الشخص من أهل الأرض والسماء^(٢) بل أن منهم كان من يجبر الطير^(٣) وهذا مدلج بن سويد الطائي يجبر الجراد من قومه ويأخذ سلاحه ويخرج وهو مستعد لقتل أي شخص منهم إن تعرض للجراد مادام في فناءه حتى غلب عليه لقب مجبر الجراد^(٤)، والجوار أحد الأمور التي أقرها الإسلام في تعاليمه وهذا الدين لا يقر شيئاً من أمور الجاهلية إلا إذا كان له أثر طيب وفيه نفع للإنسانية وللمجتمع الإنساني.

ث- المصاهرات:

للمصاهرات دور كبير في تحسين العلاقات بين القبائل العربية حتى اتخذها البعض وسيلة سياسية لكسب القبائل لذلك لجأ رؤساء القبائل للزواج من بنات سادات القبائل من أجل شد عضدهم وموازرتهم^(٥)، وذكر الألويسي^(٦): ((كان من مقاصد العرب قبل الإسلام في الزواج والمصاهرات من القبائل الأخرى اجتذاب البعداء وتأليف الأعداء حتى يرجع المفخر مؤانساً والعدو موالياً، وقد يصير للصهر بين الاثنين ألفة بين القبيلتين))، ومن العرب من اعتقد بأن الزواج من الأبعد ادعى لإنجاب النجباء من الأبناء لذلك مالوا للزواج من خارج قبيلتهم^(٧)، ومنهم من ذهب إلى خلاف ذلك إذ كان يحقد على المرأة التي تتزوج من خارج قبيلتها لأنها برأيهم تدني البعداء وتلد الأعداء^(٨)، وبلغ من قوة أثر المصاهرات في رسم شكل صلات القبائل مع بعضها البعض بأنها كانت السبب في عقد بعض الأحلاف بين القبائل التي تكون بينها مصاهرة، فهذه عامر بن صعصعة^(٩) تدخل في الحلف الديني (الحمس)^(١٠) مع قريش وكان الذي جر لهذا الحلف هو أن أم عامر بن صعصعة

- (١) للمزيد ينظر: ابن الأثير، الكامل في التاريخ، ج ١، ص ٥٠٠-٥٠٤؛ الكنانى، نهلة عبار لازم حسين، قبيلة عبس ودورها في التاريخ الإسلامي دراسة في أحوالها السياسية والاجتماعية والاقتصادية والدينية قبيل الإسلام حتى نهاية العصر الراشدي، رسالة ماجستير، غير منشورة، كلية الآداب، جامعة البصرة، ٢٠٠م، ص ٧٩.
- (٢) طلب الشاعر الأعشى أن يجبره أحد من أهل الأرض والسماء فأعطاه عامر بن الطفيل سيد هوازن ذلك فقيل له، لقد أجرته من أهل الأرض فكيف تحيره من، أهل السماء؟ فقال، إذا مات وهو في جوارى دفعت ديتة لأهله. ينظر: عبد الرحيم، محمد، ديوان عامر بن الطفيل مع السيرة والأقوال والنوادر، دار الراتب الجامعية، بيروت، ص ٣٩-٤٠.
- (٣) قام رجل من عرينه بن نذير بن قسر بن عبقر بحماية حداة مرت بمنازل قومه فعرفت به ثم لبثت حيناً فوجدت ميتة وفيها سهم من بني أفضى بن نذير بن قسر من بجيلة فقام صاحب الحداء بقتل الذي قتل الحداء، فتقاتل الحيان بسبب ذلك. ينظر: البكري، معجم ما استعجم، ج ١، ص ٥٦.
- (٤) السمعاني، عبد الكريم بن محمد بن منصور، الأنساب، تح: عبد الله عمر البارودي، دار الجنان، بيروت، ١٩٨٨م، ج ٣، ص ٤٢٨؛ ابن أبي الحديد، شرح نهج البلاغة، تح: محمد أبو الفضل إبراهيم، مكتبة المرعشي النجفي، النجف، د. ت، ج ٣، ص ٢٧٥؛ القمي، عباس، الكنى والألقاب، تح: محمد هادي أأميني، ستاره، قم، د. ت، ج ٣، ص ١٥٢.
- (٥) سليم، جوانب من تاريخ وحضارة الجزيرة العربية، ج ٤، ص ٣؛ علي، المفصل، ج ١، ص ٣٧١.
- (٦) بلوغ الأرب، ج ٢، ص ٦.
- (٧) دلو، جزيرة العرب، ص ٥٠٢؛ العلي، تاريخ العرب القديم، ص ١٧٧.
- (٨) الشهرستاني، محمد بن عبد الكريم بن أحمد، الملل والنحل، تح: صدقي جميل العطار، دار الفكر، بيروت، ٢٠٠٥م، ص ٣٨٩.

- (٩) هم بنو عامر بن صعصعة بن معاوية بن بكر بن هوازن. ينظر: ابن الكلبي، جمهرة النسب، ص ٣١٢-٣١٣.
- (١٠) اشتقاق الحمس من قولهم حمس الشر إذا اشتد وكل شيء قد اشتد فقد حمس والحمس قبائل من العرب تشددوا في دينهم منهم قريش وبنو عامر بن صعصعة وخزاعة. ينظر: ابن دريد، محمد بن الحسن، الاشتقاق، ط ٣، تح: عبد السلام محمد هارون، المدني، القاهرة، د. ت، ص ٥٠.

مجد بنت تيم بن مرة كانت قرشية^(١)، ومن الأحلاف السياسية التي كانت من أسبابها المصاهرات هو حلف ثقيف مع (قيس عيلان)^(٢) لأن أم قيس بن منبه وهو ثقيف كانت من قبيلة قيس عيلان فوجودهم أحق بالحلف من غيرهم فحالفهم^(٣)، وحالفت بنو سليم عبد مناف وجر لذلك الحلف لأنه أمه عاتكة بنت مرة كانت من بني سليم^(٤)، وذكر اليعقوبي: ^(٥) بأن الذي جر لـ (حلف الأحابيش)^(٦) هو النسب والمصاهرة، وأن عاتكة بنت مرة بن هلال بن فالح بن ذكوان هي التي جرت للحلف، بينما ذكر الزبير^(٧) بأن ريطه بنت عبد مناف كانت عند معيط بن عامر بن عوف بن الحارث بن بن عبد مناف بن كنانة وهي التي جرَّت لحلف الأحابيش، ومن أكثر القبائل التي عنت بهذا الجانب هي قريش لأن مصالحتها واعتمادها في اقتصادها على التجارة ومرور قوافلها بمضارب عدد من القبائل هو الذي دعاها لذلك^(٨) فتزوج هاشم بن عبد مناف بن قصي بن كلاب من قبيلة هوازن^(٩) وفرعها ثقيف^(١٠)، وبعده صاهر ولده عبد المطلب^(١١)

- (١) البكري، معجم ما استعجم، ج٤، ص ١١٣؛ ياقوت الحموي، ياقوت بن عبد الله الرومي، معجم البلدان، تح: محمد بن بن عبد الرحمن المرعشي، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ٢٠٠٨م، ج٨، ص ٣٠٩.
- (٢) قيس عيلان: قال قوم إنما هو الياس بن مضر وأنه ولد قيساً ودهمان والأصح أنه قيس بن مضر ومن نسله جاءت قبائل عدة. ينظر: ابن حزم، جمهرة أنساب العرب، ص ٢٤٣.
- (٣) ابن عبد البر، يوسف بن عبد البر النمري القرطبي، القصد والأمم في التعريف بأصول أنساب العرب والعجم، تح: محمود هاشم المحمداوي، دار المرتضى، بغداد، ٢٠٠٩م ص ٨٧.
- (٤) اليعقوبي، تاريخ، ج٢، ص ١٢٠؛ مؤنس، حسين، تاريخ قريش، دار المناهل، بيروت، ٢٠٠٢م، ص ١١٤.
- (٥) تاريخ، ج١، ص ٢٤١-٢٤٢.
- (٦) لم يكن الأحابيش أبناء أب واحد أو أم واحدة بل هم مجموعة بطون اجتمعوا وكونوا تكتل قبيلي أطلق عليه اسم الأحابيش. ينظر: الزبير، نسب قريش، ص ٩؛ ابن رشيقي، أبو علي الحسن بن رشيقي، كتاب العمدة في نقد الشعر وتمحيصه، ط٣، تح: غفيف نايف حاطوم، دار صادر، بيروت، ٢٠٠٦م، ص ٤٦٧؛ معطي، علي محمد، تاريخ العرب السياسي قبيل الإسلام، دار المنهل اللبناني، بيروت، ٢٠٠٤م، ص ٤١. واكتسب الأحابيش اسمهم هذا بعد أن اجتمعوا وتحالفوا عند جبل يقال له حبشي فسموا بالأحابيش فهو لقب أطلق عليهم ثم أصبحوا ينسبون إليه فيقال لأحدهم حبشي. ينظر: ابن دريد، الاشتقاق، ص ١٩٣؛ الميانجي، علي الأحمد، مكاتيب الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم)، تح: مركز تحقيقات الحج، دار الحديث، د.م، ١٩٩٨م، ج٣، ص ٨٨. وسكنوا في أطراف مكة وحالفوا قبيلة قريش. ينظر: ابن حبيب، المنمق، ص ١١٧.
- (٧) نسب قريش، ص ١٥.
- (٨) عبد الكريم، خليل، قريش من القبيلة إلى الدولة، ط٢، مؤسسة الانتشار العربي، بيروت، ١٩٩٧م، ص ٨٢.
- (٩) هم بني هوازن بن منصور بن عكرمة بن قيس عيلان. ينظر: ابن الكلبي، جمهرة النسب، ص ٣١١-٣١٢؛ ابن حزم، جمهرة أنساب العرب، ص ٢٦٤.
- (١٠) أختلف النسابون العرب في أصل ثقيف فقيل هو ثقيف بن منبه بن بكر بن هوازن. ينظر: ابن الكلبي، جمهرة النسب، ص ٣٨٥؛ ابن قتيبة، المعارف، ص ٨٦. وثقيف اسمه قيس. ينظر: ابن الكلبي، جمهرة النسب، ص ٣٨٥؛ القلقشندي، احمد بن علي، نهاية الإرب في معرفة انساب العرب، دار الكتاب العربي، بيروت، ١٩٨٤م، ص ١٨٦. وقيل أن ثقيفاً من بقايا ثمود، وقيل هم من إياد بن نزار بن مضر. ينظر: القلقشندي، نهاية الأرب، ص ١٨٦. والراجح هو ثقيف بن منبه بن بكر بن هوازن بن منصور بن عكرمة ابن خصفة بن قيس عيلان. ينظر: ابن الكلبي، جمهرة النسب، ص ٣٨٥؛ ابن حزم، جمهرة أنساب العرب، ص ٢٦٦.

المطلب^(٢) قبائل: هوازن والخزرج^(٣) وخزاعة^(٤) وقضاعة^(٥)، وغير ذلك فقد كان لقريش مصاهرة مع قبيلة فهم^(٧) (٨) وقد أشارت أغلب كتب الأنساب إلى أن التوجه العام لسادات القبائل هو المصاهرة مع بعضهم الآخر، فمن سادات قريش في الجاهلية هو صفوان بن أمية الذي صاهر ثقيف بزواجه من برزة بنت مسعود الثقفي^(٩)، وكان للقبائل الأخرى التوجه نفسه

- (١) الزبيرى، نسب قريش، ص ص ١٤ - ١٧؛ ابن قتيبة، المعارف، ص ص ١٣٠-١٣١.
- (٢) هو عبد المطلب بن هاشم بن عبد مناف بن قصي جد الرسول محمد (صلى الله عليه وآله وسلم). ينظر: الزبيرى، نسب قريش، ص ص ١-١٧.
- (٣) ابناء حارثة بن ثعلبة بن عمرو بن عامر بن حارثة بن امرؤ القيس بن ثعلبة بن مازن بن أدد وهو الأزدي بن الغوث بن النبت بن مالك بن زيد بن كهلان بن سبأ، وهم اولاد قبيلة نسبوا إلى أمهم. ينظر: ابن الكلبي، جمهرة النسب، ص ص ٦١٥ - ٦٢١. ونزل الأوس والخزرج في يثرب بعد خروجهم من اليمن على إثر خراب سد مأرب. ينظر: ابن هشام، محمد بن عبد الملك، السيرة النبوية، مؤسسة النور للمطبوعات، بيروت، ٢٠٠٤م، ج ١، ص ١٠؛ المسعودي، مروج الذهب، ج ٢، ص ص ٣٨١-٣٨٠؛ أبو البقاء هبة الله بن نما الحلبي، المناقب المزيديّة في أخبار الملوك الأسديّة، تح: صالح موسى درادكة، محمد عبد القادر خريسات، مطبعة الشرق، عمان، الأردن، ١٩٨٤م، ج ١، ص ص ٩٩-٩١؛ السهيلي، عبد الرحمن بن عبد الله بن احمد بن الحسن الخثعمي، الروض الأنف، تح: مجدي بن منصور، دار الكتب العلمية، بيروت، د.ت، ج ١، ص ٥٧؛ ابن النجار، محمد بن محمود البغدادي، الدرّة الثمينة في أخبار المدينة، تح: محمد علي شكري، دار الأرقم بن أبي الأرقم، بيروت، ص ص ٢٨-٣١؛ ابن خلدون، عبد الرحمن بن محمد الحضرمي، العبر وديوان المبتدأ والخبر في أيام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ٢٠٠٦م، ج ٢، ص ٢٨٢.
- (٤) خزاعة، من القبائل المختلف في أصل نسبها فجعلها ابن حزم مرة من العدنانيين بقوله، ((هم بنو خزاعة بن لحي بن عامر بن قمعه بن الياس بن مضر بن نزار بن معد بن عدنان))، ثم جعلها مرة أخرى من القحطانيين. ينظر: جمهرة أنساب العرب، ص ٤٨٠، ص ص ٣٢٩-٣٣١. وجعلهم القلقشندي من القحطانيين بقوله، هم أبناء عمرو بن ربيعة بن حارثة بن مزيقاء وعمرو هذا أبو خزاعة كلها ومنه تفرقت بطونها. ينظر: نهاية الأرب، ص ٢٢٨. وكان نزول خزاعة في الحجاز بعد هجرة الأزدي من اليمن، وقيل سموا خزاعة لأنهم أنزعوا عن قومهم ونزلوا الحرم. ينظر: ابن هشام، السيرة النبوية، ج ٢، ص ١٠؛ الأصمعي، عبد الملك بن قريب بن عبد الملك بن علي بن أصمغ، تاريخ العرب قبيل الإسلام، دار الوراق، بيروت، ٢٠٠٩م، ص ص ١٢٦-١٣٣؛ القلقشندي، احمد بن علي، فلائد الجمان في التعريف بقبائل عرب الزمان، تح: إبراهيم الايباري، مطبعة السعادة، القاهرة، ١٩٦٣م، ص ٥٨؛ ابن خلدون، العبر، ج ٢، ص ٢٣٤.
- (٥) هناك اختلاف في نسب قضاة فقييل هو قضاة بن عدنان وقيل قضاة بن مالك بن حمير، وقيل قضاة بن عمرو بن مرة بن زيد بن مالك بن حمير. ينظر: ابن حزم، جمهرة انساب العرب، ص ٤٤٠.
- (٦) ابن الكلبي، جمهرة النسب، ص ٢٨، ٢٧؛ سعيد، محمد، النسب والقرابة في المجتمع العربي قبيل الإسلام دراسة الجذور التاريخية للإيلاف، دار الساقى، بيروت، ٢٠٠٦م، ص ص ١٨٢-١٨١.
- (٧) فهم: بن عمرو بن قيس عيلان بن مضر بن نزار. ينظر، ابن الكلبي، جمهرة النسب، ص ٤٧١.
- (٨) ابن قتيبة، المعارف، ص ١٧٩.
- (٩) ابن حجر العسقلاني، أحمد بن علي، الإصابة في تمييز الصحابة، تح: صدقي جميل العطار، دار الفكر، بيروت، ٢٠٠٧م، ج ٧، ص ٣٣٦.

من أجل تحسين صلاتها مع القبائل الأخرى، فهذا صعصعة بن معاوية بن هوازن صاهر قبيلة عدوان^(١) بزواجه من ابنة عامر بن الضرب العدواني^(٢)، وصاهر بشر بن عبد دهمان وهو من سادات قبيلة ثقيف قريش بزواجه من خالدة بنت أبي لهب^(٤) وجاء في الحديث عن (أم خارجة)^(٥) من قبيلة بجيلة^(٦) بأنها كانت السبب في تحسين الصلات بل واندماج عدد من القبائل مع بعضها بزواجها من عدد كبير من الرجال ينتمون لعدد من القبائل العربية^(٧)، حتى ضرب المثل في سرعة زواجها فقيل^(٨): ((أسرع من نكاح أم خارجة)) ولم يقتصر الأمر على رؤساء القبائل في تحسين صلاتهم مع غيرهم بل تعداه إلى ملوك المناذرة فهذا النعمان بن امرؤ القيس^(٩) يصاهر قبيلة عيس القوية من أجل تحسين صلاتها معها^(١٠). وبالرغم من قلة موارد القبيلة واعتمادها بالأساس على أنعامها التي تعتمد بالدرجة الأولى في حياتها على خصب أرضها إلا أننا نجد إحدى القبائل تسمح لقبيلة أخرى بمشاركتها مراعيها بسبب مصاهرة كانت بينهما^(١١)، بل وبلغ أمر أثر المصاهرات في الصلات بين القبائل بأن تخرج القبيلة بعدة حربها وتعرض نفسها للخطر من أجل أن تنصر صهرها حتى على قبيلته نفسها، وهذا ما فعلته الخزرج عندما استغاث بهم عبد المطلب بن هاشم، لينصروه على عمه نوفل بن عبد مناف عندما غصبه حقه وكانت أم عبد المطلب سلمى بنت عمر وبن زيد بن لبيد من الخزرج فلبس ثمانون رجلاً من الخزرج عدة حربهم وأقبلوا حتى دخلوا مكة، ووقفوا على رأس نوفل بن عبد مناف يطلبون منه أن يرد على ابن أختهم حقه وإلا فإنهم مستعدون لقتله وخوض حرب مع من يناصره^(١٢)، إلا أن ذلك لا يعني بأن كل من له صهر في قبيلة أخرى قد ضمن وقوفها إلى جانبه، لأن هذا قد لا يحدث في بعض الأحيان لأن الأساس كما ذكرنا سابقاً هو مصلحة القبيلة أولاً فهذه قبيلة طيء وبالرغم من أن النعمان بن المنذر كان قد صاهرهم إلا أن طيء^(١٣) ترفض إجارته عندما طلبه كسرى ملك

- (١) عدوان: بن عمرو بن قيس عيلان بن مضر بن نزار، ينظر: الفلقشندي، نهاية الأرب، ص ٣٢١.
- (٢) هو عامر بن الضرب بن عمرو بن عياد بن يشكر بن عدوان من حكام العرب قبيل الإسلام. ينظر: ابن حزم، جمهرة جمهرة أنساب العرب، ص ٢٤٣.
- (٣) الألويسي، بلوغ الأرب، ج ١، ص ٣١٢.
- (٤) ابن حبيب، المحبر، ص ٦.
- (٥) أم خارجة: هي عمرة بنت سعد بن عبد الله بن قراد بن ثعلبة بن معاوية بن زيد بن الغوث بن أنمار. ينظر: ابن حبيب، المحبر، ص ٣٩٨.
- (٦) بجيلة: هم بنو أنمار بن ارش بن عمرو من كهلان القحطانية. ينظر: ابن حزم، جمهرة انساب العرب ص ٣٨٧، الفلقشندي، نهاية الأرب، ص ١٦٣.
- (٧) ابن حزم، جمهرة أنساب العرب، ص ٢٠٦.
- (٨) ابن حبيب، المحبر، ص ٣٩٨.
- (٩) هو النعمان بن المنذر بن الحارث ملك الحيرة. ينظر: السمعاني، الأنساب، ج ٥، ص ٣٩٣.
- (١٠) ابن حبيب، المحبر، ص ٢٠٣؛ الزر كلي، الأعلام، ج ٥، ص ٢٤٩.
- (١١) كان بنو صاهلة من هذيل وبنو فهم متعادين يقتل بعضهم بعضاً وعندما أجدبت أرض فهم وكانت أرض هذيل قد أخصبت خرج أشراف فهم إلى هذيل وطلبوا منهم الجوار في المرعى حتى تخصب أرضهم فأبى قسم ووافق آخر، لكن الذي أدى إلى حسم الموقف والموافقة على طلبهم هو أن أحد بني صاهلة واسمه خويلد بن المحرث بن الأشيم وآخر معه قد نالا نسب في فهم فعملوا على إجارة فهم لأنهم أصهارهم. ينظر: السكري، شرح أشعار الهذليين، ج ٢، ص ٢٧٤.
- (١٢) للمزيد عن ذلك، ينظر: الطبري، محمد بن جرير، تاريخ الأمم والملوك، تح: دار الأميرة، الأميرة، بيروت، ٢٠٠٥م، ج ٢، ص ١١.
- (١٣) طيء: هم بنو اد بن زيد بن يشجب بن عريب بن كهلان، ينظر: الفلقشندي، قلائد الجمان، ص ٧٢.

الفرس خوفاً على مصالح القبيلة وأبناءها^(١)، بل قد يتعدى الأمر ذلك فتجد حروباً وأياماً قد حدثت بين قبائل كان بينهم صلة نسب ومصاهرة^(٢).

ثالثاً- الشعر والشعراء:

للشعراء وما يقولونه من أشعار أثر كبير في تحديد ملامح الصلات بين القبائل العربية في شبه الجزيرة العربية، والذي دعا أن يكون للشعر هذا الدور أنه كان ديوان العرب وفيه أخبارهم وهو شاهد على صوابهم وخطئهم ولأنهم يرجعون إليه في الكثير من علومهم وحكمهم^(٣)، فالشاعر هو لسان القبيلة الناطق بمحامدها والذائد عن حماها إذا ما تعرضت لهجاء شاعر آخر وَعَرَفَتْ القبائل للشعراء فضلهم، فكان إذا نبغ في القبيلة شاعر أنتها القبائل الأخرى فهنأتها واحتفى أبناء القبيلة بذلك كما يحتفون في الأعراس لأنه حماية لأعراضهم وذبح عن أحسابهم وتخليد لمآثرهم وإشادة بذكرهم^(٤)، والشعر في السابق هو بمثابة وسائل الأعلام في الوقت الحاضر، وبذلك فإن الشاعر يرى من واجبه أن يرد على كل من يتعرض لقبيلته بهجاء مثله أو أشد منه^(٥)، ويعد الشعر في تلك الحقبة من أمضى الأسلحة في حياة يغلب فيها القوي الضعيف لذلك نجد أن اعتزاز القبيلة بشاعرها أكبر من اعتزازها بالفارس الذي يحمي الحمى بسيفه^(٦)، والغالب على الشعراء آنذاك أنهم أبواق عدوان ودعاة شر وقلماء نجد شاعراً في الجاهلية يدعو إلى السلم وينفر عن الحرب، وهذا واضح من قول ابن خلدون^(٧) في الشعر آنذاك:

لعن الله صنعة الشعر ماذا من صنوف الجهال منه لقينا

والشاعر يقف موقف المتعصب المغالي في عصبية القبيلة التي ينتمي إليها، فعندما كانت القبيلة تتلأأ في أخذ ثأرها من قوم لها عندهم وتر كان شعراء القبيلة يعيرون عليها هذا الموقف ويحرضونها بشعرهم على الطلب بالثأر والقتال ولا يزالون بهم حتى تدب الحمية في نفوس رجالها ويسارعون إلى الطلب بدم قتلاهم وكانوا يعيرون القبيلة أن هم قبلوا الدية^(٨). وبلغ من أمر أثر الشعر في العلاقات بين القبائل العربية أن منه ما هدد النظام العام في شبه الجزيرة العربية لما له من وقع في نفوس الناس واهتمامهم وتأثرهم به^(٩)، لذلك كان العرب في ذلك العصر يتقون الشعراء اتقاءً شديداً^(١٠)، حتى شاع

(١) ابن حبيب، المحبر، ص ٤٣٧؛ ابن منظور ن لسان العرب، ج ٤، ص ١٨٤؛ الزر كلي، الأعلام، ج ٣، ص ١١٣.

(٢) مثال ذلك الحروب بين الأوس والخزرج، للمزيد ينظر: الطبري، محمد بن جرير، جامع البيان عن تأويل آي القرآن، تح: صدقي جميل العطار، دار الفكر، بيروت، لبنان، ١٩٩٤م، ج ١، ص ٥٥٩؛ السيوطي، عبد الرحمن بن أبي بكر، الدر المنثور في التفسير بالمأثور، الفتح: جدة، ١٩٨٠م، ج ١، ص ٨٦، وكذلك الحرب بين عبس وذبيان للمزيد ينظر: ابن عساکر، علي بن الحسن بن هبة الله بن عبد الله، تاريخ مدينة دمشق، تح: علي شيري وآخرون، دار الفكر، بيروت، ١٩٩٥م، ج ١٠، ص ٣٩٩.

(٣) الجمحي، طبقات فحول الشعراء، تح: محمود محمد شاكر، دار المدني، جدة، د.ت، ج ١، ص ٢٤؛ الدينوري، احمد بن داود، الأخبار الطوال، تح: عمر فاروق الطباع، دار الأرقم بن أبي الأرقم، بيروت، د.ت، ص ٣٠١.

(٤) الجمحي، طبقات فحول الشعراء، ج ١، ص ٢٤؛ ابن خلدون، المقدمة، ج ٢، ص ٥٧٠؛ الدينوري، الأخبار الطوال، ص ٣٠١.

(٥) ابن رشيق، كتاب العمدة في نقد الشعر وتمحيصه، ص ٥١؛ اللامي، كريم حسن الأمل واليأس في الشعر الجاهلي، دار الشؤون العامة، بغداد، ٢٠٠٨م، ص ٧٣؛ النص، العصبية القبلية، ص ٦١-٦٢.

(٦) حتي، تاريخ العرب، ص ١٣٩؛ النص، العصبية القبلية، ص ١٦.

(٧) علي، المفصل، ج ١، ص ٣٧٥؛ اللامي، الأمل واليأس، ص ٧٣.

(٨) المقدمة، ج ٢، ص ٢٧٥-٢٧٦.

(٩) النص، العصبية القبلية، ص ١٦٥.

شاع عند العرب قول: ((طعن اللسان أمضى من طعن السنان))^(٣)، لذلك عمدت بعض القبائل إلى منع شعرائها من هجاء القبائل الأخرى إذ لم يكن بينهم عداً^(٤)، ومنهم من كان يشد لسان الشاعر إذا أسره بنسعة^(٥) حتى لا يهجو أو قبيلته أو يأخذون عليه العهود والمواثيق إن هم أطلقوا سراحه ألا يفعل ذلك^(٦).

ولما يقوله الشعراء من شعر مضار ومحاذير فكثيراً ما كان التهاجي بين الشعراء ينقلب إلى وقائع دامية بين القبائل التي ينتمون إليها، بل كان التلاحي بين شعراء القبيلة الواحدة يؤدي أحياناً إلى وقوع الشر بين بطونها^(٧)، ويذكر الدكتور جواد علي^(٨) بأن القبيلة التي لم يكن فيها شاعر كانت تستأجر الشعراء لقول المدح والذم، ومن الأمثلة على توتر الصلات ونشوب القتال بسبب الشعر هو ما قاله شاعر طيء من شعر في هجاء عمرو بن هند ملك الحيرة فأثار غضبه وغزا قبيلة طيء وَكَلَّ بهم^(٩)، وبدون شك فإن سبب أخذ القبيلة بما يقوله شاعرها لأنه كان لسانها أي أن هذا الشعر لا يكون فردياً بل أنه يمثل عموم القبيلة لذلك عليها أن تتحمل تبعات ذلك، وقد تناول الشعر مواضيع شتى فضلاً عن الهجاء والمدح والتفاخر، وأبرز ما تفاخر به الشعراء هو أصالة النسب ونبل المحتد وكثرة العدد والشجاعة في القتال وإبائه الذل وغيرها من المواضيع^(١٠)، وما يدل على أثر الشعر في الصلات بين القبائل هو أنه كان يكثر أيام الحروب ويقبل عند القبائل التي تغل غزواتها وغاراتها^(١١)، وكانت العرب تعقد في أسواقها مكاناً يلتقي فيها الشعراء يلقون فيه أشعارهم ويتفاخرون ويتنافرون ومن أهم تلك الأسواق سوق عكاظ^(١٢)، ومن تلك المجالس ما كان يعقد في مجالس ملوك الحيرة والشام^(١٣)، وكان لملوك الحيرة في بعض الأحيان أهداف سياسية من عقد مثل تلك المناظرات الشعرية وهو إثارة القبائل على بعضها البعض من أجل

(١) حتي، تاريخ العرب، ص ١٣٩.

(٢) الزركلي، الأعلام، ج ٥، ص ٢٨٤.

(٣) الواسطي، علي بن محمد الليثي، عيون الحكم والمواعظ، تح: حسين الحسيني البيرجندي، دار الحديث، د.م، ١٩٨٥م، ص ٣١٨؛ الريشهري، محمد، ميزان الحكمة، تح: دار الحديث، مطبعة دار الحديث، د.م، ١٩٨٢م، ج ٤، ص ٢٧٨.

(٤) الجمحي طبقات فحول الشعراء، ص ص ٢٣٥-٢٣٦.

(٥) نسعة: سير منسوج يظفر على هيئة أعنة النعال. ينظر: الزبيدي، تاج العروس، ج ٥، ص ٥٢٣.

(٦) كما فعلت تيم في يوم الكلاب الثاني حين اسروا عبد يغوث بن وقاص الحارثي وشدوا لسانه بنسعة حتى لا يهجوهم. ينظر: الباقلاني، محمد بن الطيب، إجاز القرآن، ط ٣، تح: احمد صقر، دار المعارف، القاهرة، د.ت، ص ٨٠؛ الزبيدي، تاج العروس، ج ٥، ص ٥٢٣.

(٧) العيثاوي، احمد حسين عبد، الأدب في الحيرة قبيل الإسلام، دار الشؤون الثقافية العامة، بغداد ٢٠٠٨م، ص ٣٥-١٤٣؛ النص، العصبية القبلية، ص ١٦٦.

(٨) المفصل، ج ١، ص ٣٧٥.

(٩) ابن الأثير، الكامل في التاريخ، ج ١، ص ص ٤٩٧-٤٩٨؛ ابن أبي الحديد، شرح نهج البلاغة، ج ٣، ص ٣١٦.

(١٠) ابن حبيب، المنمق، ص ٣٨٦ وما بعدها؛ الألوسي، بلوغ الأرب، ص ص ٢٧٥-٢٧٦.

(١١) وكان ذلك من أسباب قلة شعر مكة والطائف. ينظر: ابن سلام، طبقات فحول الشعراء، ج ١، ص ٢٥٩.

(١٢) عكاظ: من أسواق العرب المعروفة في الجاهلية بين نخلة والطائف. ينظر: البغدادي، صفي الدين عبد المؤمن بن عبد الحق، مرصد الاطلاع على أسماء الامكنة والبقاع، تح: علي محمد البجاوي، دار الجيل، بيروت، ١٩٩٢م، ج ٢، ص ٩٥٣.

(١٣) الألوسي، بلوغ الأرب، ج ١، ص ص ٢٧٥-٢٧٦.

إضعافها والسيطرة عليها^(١)، وبصورة عامة فإن جميع أفراد القبيلة يهتدون مسرعين ليقفوا خلف شاعرهم إذا ما نافر أو فاخر رجلاً آخر من قبيلة أخرى^(٢)، ولم يكن جميع الشعراء دعاة شر ولم يكن الشعر باتجاه تأجيج الحرب وإثارة العداء بين القبائل فقط بل كان هناك تيار من الشعر ومجموعة من الشعراء يسعون إلى عكس ذلك وهو نبذ الحروب وإشاعة السلم وتحسين العلاقات بين القبائل المتناحرة، وخير من يمثل هذا التيار هو زهير بن أبي سلمى^(٣) الذي كان لا يهاجي في الكلام ولا يمدح الرجل إلا بما فيه^(٤)، ومن شعره^(٥) الذي يدعو فيه للصلح بين عبس وذبيان و يدعوهما إلى السلم ويمدح (هرم بن سنان)^(٦) و(الحارث بن عوف)^(٧) لسعيهما في الصلح وحمل ديات القتلى:

يميناَ لنعم السيدان وجدتما على كل حال من سحيل ومبرم^(٨)

تداركتما عبساً وذبيان بعدما تفتانوا ودقوا بينهم عطر منشم^(٩)

وكذلك (الأحوص)^(١٠) الذي عمد إلى إطفاء نار الفتنة والخصومات الداخلية بين (بطون بكر)^(١١)، فخطب أبناء عمومته بشعره^(١٢) ألا يهيجوا الحرب وأن يندشوا السلم والسلام ومن قوله:

بني عمنا لا تبعتوا الحرب بيننا كرد رجيع الرفض وارموا إلى السلم^(١٣)

وعالج الإسلام الجانب السلبي من الشعر لما له من خطورة في تهديد النظام العام وإثارة الأحقاد والفتن، لأن العرب كانوا قبيل الإسلام إذا قضاوا مناسكهم في الحج يجتمعون فيتنافرون ويتفاخرون بأنسابهم واحسابهم ويتكبر كل واحد منهم على الآخر فنهاهم الله عز وجل عن ذلك^(١٤) بقوله تعالى: ﴿فَإِذَا قُضِيَتْ مَنَاسِكُكُمْ فَانكُرُوا لِلَّهِ كَنُكْرِكُمْ أَوْ أَشَدَّ ذِكْرًا...﴾^(١).

(١) العيثاوي، الأدب في الحيرة قبيل الإسلام، ص ١٤٥.

(٢) عبد الرحيم، ديوان حاتم الطائي، ص ٥٠-٥١.

(٣) ينظر: ص ٤ من البحث.

(٤) الجمحي، طبقات فحول الشعراء، ج ١، ص ٦٣.

(٥) الجمحي، المصدر نفسه، ج ١، ص ٦٣-٦٤؛ الزوزني، شرح المعلمات السبع، ص ٧٠.

(٦) هو هرم بن سنان من ذبيان من غطفان. ينظر: ابن حزم، جمهرة انساب العرب، ص ٢٥٢.

(٧) هو الحارث بن عوف بن أبي حارثة بن مرة بن نشبة صاحب الحملالة في حرب داحس. ينظر: ابن الكلبي، جمهرة النسب، ص ٤١٨.

(٨) السحيل: المفتول على قوة واحدة، والمبرم، المفتول على قوتين أو أكثر. ينظر: الزوزني، شرح المعلمات السبع، ص ٧٥.

(٩) التدارك: التلافي و التفاني، التشارك في الفناء، منشم، قيل هو اسم امرأة تبيع العطر أشتري منها قوم عطر وغمسوا أيدهم وتحالفوا على القتال فقتلوا على آخرهم، فضربت العرب بها المثل في الشؤم. ينظر: الزوزني، شرح المعلمات السبع، ص ٧٥.

(١٠) هو الأحوص الشاعر أبو عامر عبد الله بن محمد بن عبد الله. ينظر: الذهبي، محمد بن احمد بن عثمان الذهبي، سير أعلام النبلاء، تح: محب الدين أبي سعيد عمر بن غرامة العمروي، دار الفكر، بيروت، ١٩٩٧م، ج ٥، ص ٤٧٧.

(١١) من بطون بكر بن وائل علياً ويشكر وبدنا. ينظر: ابن دريد، الاشتقاق، ص ٣٣٩.

(١٢) ابن منظور، لسان العرب، ج ١٣، ص ٥٢٤؛ الزبيدي، تاج العروس، ج ٩، ص ٤٠٣.

(١٣) كرد رجيع: كالذي يرد الماء الجاري عن وجه الأرض، ينظر: ابن دريد، الاشتقاق، ص ٥٣٤.

(١٤) الزمخشري، محمود بن عمر بن محمد، تفسير الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل و عيون الأقاويل في وجوه التأويل، ط ٤، تح: محمد عبد السلام شاهين، دار الكتب العلمية، بيروت، ٢٠٠١م، ج ١، ص ٢٤٥؛ الثعالبي، عبد

رابعاً - الدين:

إن المعتقد الديني أحد العوامل التي لها أثر في صلوات القبائل قبل الإسلام لكن تأثيره لم يصل إلى قوة تأثير العوامل التي سبقته مثل العامل الاقتصادي أو الاجتماعي أو الشعر والشعراء، ويتبين أثر الدين في رسم صلوات القبائل مع بعضها البعض من قبيلة لأخرى، وسنرى بأن أكثر القبائل تأثراً بهذا الجانب واستفادة منه هي قبيلة قريش لنزولها في الحرم، فأصبحت لها خصوصية تميزها على غيرها من القبائل، ويرى الدكتور حسين مؤنس^(١) بأن عنصر الدين قبل الإسلام كان يُؤمّن حياة الاستقرار والانتظام والرخاء، وبصورة عامة فإن أغلب القبائل العربية كانت تعظم البيت الحرام فلا تتقاتل فيه، وتحترم قريش فلا تتعرض لتجاريتها لأنهم كانوا يرون بأن قريش جيران بيت الله^(٢)، ولم تدخر قريش جهداً في استغلال هذا الجانب، فعملت على تحسين صلواتها مع القبائل العربية في الحجاز وغيره من المناطق^(٣)، وبلغ من أثر الحرم في الصلوات بين القبائل بأنه إن كانت هناك قبيلتان متحاربتان ودخلت إحداهما في حدود الحرم أمسكت الأخرى عنها ولم تقاؤها تعظيماً لحرمه بيت الله الحرام^(٤)، وبلغت حرمة الحرم عند بعض القبائل بأن الرجل يحدث الحدث بقتل الرجل أو لطمه أو ضربه فيربط لحي من شجر الحرم في رقبته فلا يتعرض له أحد^(٥)، واستغلّت قريش مواسم الحج خير استغلال فعملت على تنويع صلواتها مع القبائل سياسياً واقتصادياً وبوسائل مختلفة منها التحالفات لذلك فقد أولت قريش

الرحمن بن محمد بن مخلوف، تفسير الثعالبي المسمى بالجواهر الحسان في تفسير القرآن، تح: عبد الفتاح ابو سنة وآخرون، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ١٩٩٧م، ج ١، ص ٤٢٣؛ الخوئي، أبو القاسم الموسوي، البيان في تفسير القرآن، ط ٤، دار الزهراء، بيروت، ١٩٧٥م، ص ٦٦.

(١) سورة البقرة من الآية ٢٠٠.

(٢) تاريخ قريش، ص ١٢٩.

(٣) ابن أبي الحديد، شرح نهج البلاغة، ج ١٥، ص ٢١١؛ الاسترأبادي، محمد بن الحسن، شرح شافيه ابن حاجب، تح: محمد نور الحسن وآخرون، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٩٧٥م، ج ٤، ص ٣٠٧؛ الشامي، محمد بن يوسف الصالحي، سبل الهدى في سيرة خير العباد، تح: عادل أحمد عبد الموجود، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٩٩٣م، ج ١، ص ٢٧٠.

(٤) الأفغاني، سعيد، أسواق العرب في الجاهلية والإسلام، دار الأفاق العربية، بيروت، ١٩٣٣م، ص ٨٧.

(٥) كانت قريشاً بسوق عكاظ فأتاها خبر قتل أحد أحلافها لرجل من هوازن التي حضرت هذا السوق بكثرة فأنسلت قريش من السوق باتجاه مكة ولما علمت هوازن بذلك لحقت بقريش وحدث قتال بين القبيلتين حتى إذا جن الليل دخلت قريش الحرم فأمسكت هوازن عنهم رعاية لحرمه البيت وقال شاعر هوازن في ذلك،

يا شدة ما شددنا غير كاذبة على (سخينة) (*) لولا الليل والحرم (**)

(*) السخينة: طعام حار يتخذ من دقيق وسمن وقيل دقيق وتمر أغلظ من الحساء وأرق من العصيدة وكانت قريش تكثر من أكلها فغيرت بها حتى سموها سخينة. ينظر: ابن منظور، لسان العرب، ج ١٢، ص ٢٠٦؛ الزبيدي، تاج العروس، ج ٦، ص ٢٤٨.

(**) ينظر: ابن حبيب، المنمق، ص ١٧؛ الحلبي، علي بن إبراهيم بن أحمد الشافعي، السيرة الحلبية، المسمى إنسان

العيون في سيرة الأمين والمأمون، ط ٣، تح: عبد الله محمد الخليفي، دار الكتب العلمية، بيروت، ٢٠٠٨م، ج ١، ص (٦) ابن الأثير، أبي السعادات المبارك بن محمد، النهاية في غريب الحديث والأثر، تح: أبو عبد الرحمة صلاح بن محمد بن عويصة، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٩٩٧م، ج ٣، ص ٢٢؛ الزبيدي، تاج العروس، ج ٣، ص ٣٣١.

أمور الحج والحجيج عناية خاصة^(١)، ونجحت قريش في تكوين شبكة من الصلات الحسنة مع مختلف القبائل، لذلك فقد أصبحت آمنة في تجارتها^(٢)، وللاشهر الحرم أثر كبير في العلاقات بين القبائل، فأغلب القبائل كانت تضع أسلحتها في هذه الأشهر فلا غارة ولا قتال^(٣)، بل أن الرجل يلقي قاتل أبيه أو أخيه فلا يعترض سبيله إن كانوا في الأشهر الحرم^(٤)، وبذلك يمكن اعتبار الأشهر الحرم بمثابة هدنة بين القبائل تستخدمها القبائل لتحسين صلاتها فيما بينها أو لاستعادة عافيتها وتمويل نفسها، ودليل ذلك أن الكثير من الأسواق العامة كانت تقام في الأشهر الحرم^(٥) ومن الأعمال التي تقام فيها هو التفاوض بين القبائل ودفع ديات الأسرى^(٦).

وهذا لا يعني أن للبيت الحرام والأشهر الحرم هذا التأثير على جميع القبائل العربية فقد كانت بعضها لا يعتمر ولا يحرم الشهر ولا البلد الحرام منها قبيلتي طيء وختعم^{(٧)(٨)}، ومن الشواهد على أثر الدين في الصلات بين القبائل هو أنه على الرغم من العداء الذي حدث بين الأوس والخزرج فأنهم كانوا إذا ما ارتبط الأمر بالحج أو بالعمرة فأن من عادتهم إذا خرج أحدهم للحج أو العمرة علق على باب بيته(كرانيف)^(٩) النخل فعلم الناس أنه ذاهب للبيت فلا يتعرضون له^(١٠)، وانفرد المسعودي بنقل رواية تفيد بأنه قبل الإسلام بمائة وخمسين سنة كان قد حدث قتال في موسم الحج وعند البيت الحرام ونهبت القبائل بعضها بعضاً فسميت تلك الحجة بحجة الغدر^(١١)، وعقدت بعض القبائل العربية أحلافاً قامت على أساس الدين منها الحمس و(الحلة)^(١٢) وكذلك العباد الذين كانوا بطون شتى من قبائل العرب فجمعتهم النصرانية واجتمعوا في الحيرة فسموا العباد وأصبح ذلك نسباً يرجعون إليه^(١٣)، وفي بعض الأحيان يكون الاختلاف في المعتقد الديني أحد أسباب القتال وإراقة الدماء بين القبائل وإن كان نادر الحصول، ومنه القتال الذي حدث بين (كنانة)^(١٤) و(غطفان)^(١٥) لأن بني

(١) عبد الله، الدعوة الإسلامية وحياة البداوة، ص ٤٣-٤٤.

(٢) الألويسي، بلوغ الأرب، ج ٣، ص ٣٨٠.

(٣) الجمحي، طبقات فحول الشعراء، ج ١، ص ٧٣، ٧٤؛ الجوهري، مختار الصحاح، ج ٥، ص ١٩٦٧.

(٤) الطبري، جامع البيان، ج ١، ص ٦٩٧؛ الطوسي، محمد بن الحسن، التبيان في تفسير القرآن، تح: أحمد حبيب صقر صقر العاملي، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ١٩٨٨م، ج ٢، ص ١٤٩.

(٥) اليعقوبي، تاريخ، ج ١، ص ٢٧٠ - ٢٧١.

(٦) ابن سعد، الطبقات، ج ٣، ص ٣٩؛ اليعقوبي، تاريخ، ج ١، ص ٢٧٠ - ٢٧١.

(٧) خثعم، بن انمار بن أراش بن عمرو بن الغوث. ينظر: ابن حزم، جمهرة أنساب العرب، ص ٣٨٧.

(٨) الجاحظ، الحيوان، ج ٧، ص ١٤٨٣؛ الشهرستاني، الملل والنحل، ص ٣٩٩.

(٩) كرانيف النخل: هي أصل السعفة الغليظ الملتصق بجذع النخلة. ينظر: ابن منظور، لسان العرب، ج ٩، ص ٢٩٧.

(١٠) ابن حبيب، المنمق، ص ٢٦٩؛ ابن الأثير، الكامل في التاريخ، ج ١، ص ٥٩٩.

(١١) للمزيد عن أخبار هذا الحدث والقبائل التي كانت سبباً في ذلك ينظر: التتبيه والإشراف، ص ١٧٣.

(١٢) الحلة: هم تميم وضبه ومزينة والرياب وعكل وثور وقيس عيلان باستثناء ثقيف وعامر بن صعصعة وربيعة بن نزار كلها وقضاعة وغيرها. ينظر: اليعقوبي، تاريخ، ج ١، ص ٢٥٧.

(١٣) ابن دريد، الاشتقاق، ص ١١.

(١٤) كنانة، هي غير كنانة المذكورة في عمود النسب النبوي، وهي كنانة عذرة من كلب القحطانية. ينظر: القلقشندي، نهاية الأرب، ص ٢٥٤.

(١٥) غطفان، هم بنو غطفان بن سعد بن قيس عيلان. ينظر: ابن حزم، جمهرة أنساب العرب ص ٢٥٠.

بغض بن ريث بن غطفان كانوا قد بنو بيتاً في أرضهم وسموه بساً بعد أن أخذوا حجراً من الصفا وآخر من المروة^(١) وبنو عليهما ذلك البيت وأخذوا يتعبدونه ويتخذونه حرماً لهم فبلغ ذلك زهير بن جناب الكتاني^(٢) فقال والله لا يكون ذلك أبداً وأنا حي ولا أدع غطفان تتخذ حرماً فجمع قبيلته وغزا غطفان وقاتلهم أشد قتال وظفر بهم وأخذ منهم فارساً وقتله في حرمهم فَعَطَّلَهُ وهدم بساً وما حوله^(٣).

وبصورة عامة فإن القبائل العربية غير الحمس سواء كانوا نصارى أم وثنيين لم يكونوا يقيمون وزناً كبيراً للدين في صلاتهم مع القبائل الأخرى^(٤)، فالقبائل الوثنية لم تكن صلتها بآلهتها وثيقة جداً^(٥)، فكان لبني ملكان من كنانة صنم يقال له (سعد)^(٦) وفيه يقول قائلهم^(٧):

أتينا إلى سعد ليجمع شملنا فشتتنا سعد فلا نحن من سعد

وهل سعد إلا صخرة بتنوفة^(٨) من الأرض لغى ولا رشد

وهذا (امرؤ القيس)^(٩) عندما قُتِلَ أبوه وأراد الطلب بثأره أتى الصنم (ذو الخصة)^(١٠) فأستقسم عنده ثلاث مرات كل مرة مرة يخرج الأمر بنهيه عن ذلك فكسر الأعواد التي كانت بيده ورمى بها وجه الصنم وشتمه^(١١) ثم قال^(١٢):

لو كنت ياذا الخصة الموتورا

مثلي وكان شيخك المقبورا

لم تنه عن قتل العداة زورا^(١٣)

(١) الصفا والمروة: هما موضعان بين بطحاء مكة والمسجد وأما الصفا فمكان مرتفع من جبل أبي قبيس بينه وبين المسجد المسجد الحرام عرض الوادي الذي هو طريق وسوق ومن وقف على الصفا كان بحذاء الحجر الاسود والمشعر الحرام بين الصفا والمروة. ينظر: ياقوت الحموي، معجم البلدان، ١٩٢/٥.

(٢) هو زهير بن جناب بن هبل بن عبد الله بن كنانة بن عوف بن عذرة الكلبي، أحد من اجتمعت عليه قضاة في الجاهلية. ينظر: ابن حزم، جمهرة أنساب العرب، ص ٤٥٦-٤٥٧؛ ابن الأثير، الكامل في التاريخ، ج ١، ص ٤٥٤-٤٥٥.

(٣) ابن الكلبي، جمهرة النسب، ص ٤٧٦؛ ابن الأثير، الكامل في التاريخ، ج ١، ص ٤٥٤-٤٥٥.

(٤) حتي، تاريخ العرب، ص ٥٣.

(٥) بروكلمان، تاريخ الشعوب الاسلامية، ص ٢٥.

(٦) كانت تعبد بني بكر بن كنانة. ينظر: اليعقوبي، تاريخ، ج ١، ص ٢٥٥.

(٧) الشهرستاني، الملل والنحل، ص ٣٩١.

(٨) تنوفة: مكان منخفض من الأرض فيه ماء ونخل. ينظر: الزبيدي، تاج العروس، ج ٢، ص ٣٨٧.

(٩) امرؤ القيس بن حجر بن الحارث بن عمرو بن حجر آكل المرار. ينظر: السمعي، الأنساب، ج ٥، ص ٢٤٨.

(١٠) ذو الخصة: صنم كانت تعبد به بجيلة و خثعم وغيرهما من القبائل. ينظر: اليعقوبي، تاريخ، ج ١، ص ٢٥٥.

(١١) الحميري، محمد بن عبد المنعم، الروض المعطار في خبر الأقطار، ط ٢، تح: إحسان عباس، دار السراج، بيروت، ١٩٨٠م، ص ١٢٩؛ حتي، تاريخ العرب، ص ١٤٢.

(١٢) ابن حجر العسقلاني، فتح الباري، ج ٨، ص ٥٧.

(١٣) الزور: هو الميل عن الحق، ينظر: الزبيدي، تاج العروس، ج ٣، ص ٢٤٥.

أما القبائل النصرانية في شبه الجزيرة العربية فهي لا تختلف كثيراً عن القبائل الوثنية في تأثرها بالدين من حيث تأثره في صلاتها مع القبائل الأخرى فهناك قبائل نصرانية مثل (بني تغلب)^(١)، لكنها لم تنقيد بالوزع الديني، فكانت تغزو وتغير على القبائل الأخرى بل ذهبوا لأبعد من ذلك حيث أغاروا على بعضهم البعض فيسبون ويقتلون^(٢).

خامساً- السياسة الخارجية:

يمكن اعتبار هذا العامل من أقل العوامل تأثيراً في تشكيل ملامح وصور الصلات بين القبائل العربية في شبه الجزيرة العربية بصورة عامة والحجاز خاصة، لأن مكة هي مركز الحجاز الديني والروحي لم يسبق وأن دخلت تحت سلطان دولة من الدول أو حكومة من الحكومات، بالرغم من أن الفرس والرومان والأحباش لم يكونوا يخفون أطماعهم في التوسع وضم الحجاز إلى مناطق نفوذهم^(٣)، وحديثنا عن السياسة الخارجية سيأخذ اتجاهين الأول أجنبي خارجي يمثل الفرس والرومان والأحباش، والثاني داخلي يمثل ملوك الغساسنة والمناذرة وأن كانا قد ارتبطا ببعضهما البعض بطريقة أو بأخرى.

والذي اضعف من أثر هذا العامل في تحديد صلات القبائل مع بعضها البعض هو الطبيعة القاسية التي جعلت من سجايا العرب عدم الانقياد لحكم أو سياسة^(٤)، وكانت أغلب القبائل العربية في الحجاز وغيره تآبى الخضوع لغيرها وتأنف الانقياد لقبيلة أخرى أو دولة من الدول^(٥)، ورغم ذلك فقد امتد الصراع في بعض الحالات بين الفرس والروم والأحباش ليؤثر ليؤثر على القبائل في الجزيرة العربية وكانت مصالح القوى الأجنبية تتمثل بالأساس في محاولة استغلال ثروات البلاد الاقتصادية وتأمين طرق مواصلاتهم التجارية الممتدة عبر المنطقة العربية وهي طرق ومنافذ مهمة لاقتصادهم^(٦)، إلا أن تدخل هذه القوى في شؤون الحجاز خاصة لم يكن بصورة مباشرة سوى قيام الأحباش بغزو مكة إلا أن محاولتهم هذه باءت بالفشل الذريع^(٧)، وكان تدخل هذه القوى في شؤون القبائل عن طريق صنائع يتخذونها مثل الغساسنة الذين يؤيدون الروم والمناذرة في الحيرة يؤيدون الفرس، وبالطبع فإن مصلحة الفرس والروم هي في عدم توحيد العرب واستمرار تفرقهم^(٨)، ولملوك الحيرة أكثر من غيرهم دور في هذا الجانب فاتخذوا من تأريث الخلاف بين القبائل العربية وتأجيج الصراع بينها وما يعقبه من حروب ثم دعوتهم لإطفاء لهيبها صلحاً أو الوقوف بجانب هذه القبيلة أو تلك بصورة مباشرة أحياناً وغير مباشرة حيناً آخر أحد أساليب تثبيت حكمهم^(٩)، ومثال ذلك الصلح الذي حدث في مجلس (عمرو بن هند)^(١٠) بين بكر وتغلب وتأييد عمرو لتغلب^(١١)، وكذلك دفع (النعمان بن المنذر)^(١٢) (بني نهشل)^(١) للأخذ بثأرهم من (بني عجل)^(٢)، ولم

(١) هم ولد عمرو بن غنم بن تغلب وفيهم العدة والعدد. ينظر: ابن حزم، جمهرة انساب العرب، ص ٣٠٤.

(٢) الجاحظ، الحيوان، ج ٧، ص ١٤٨٣؛ حتى، تاريخ العرب، ص ٥٣.

(٣) عبد الله، ضرغام، تطور أنظمة الحكم والسياسة في العصور العربية القديمة والإسلامية الوسيطة، دار الشؤون الثقافية الثقافية العامة، بغداد، ٢٠٠٧م، ج ١، ص ٢١٠.

(٤) ابن خلدون، المقدمة، ج ١، ص ١٤٩.

(٥) النص، العصبية القبلية، ص ١٤٣.

(٦) عبد الله، تطور أنظمة الحكم، ج ١، ص ٢٠١.

(٧) ابن هشام، ج ١، ص ٣٠-٣٥؛ السهيلي، الروض الانف، ج ١، ص ١١٧-١٢٥.

(٨) معاليقي، صفحات مطوية، ج ١، ص ٧٥.

(٩) العيثاوي، الأدب في الحيرة، ص ١٤٥.

(١٠) هو عمرو بن المنذر ملك الحيرة، ينظر: ابن حبيب، المنمق، ص ٧١.

(١١) العيثاوي، الأدب في الحيرة، ص ١٤٥.

(١٢) هو النعمان بن المنذر بن الحارث ملك الحيرة. ينظر: السمعاني، الأنساب، ج ٥، ص ٣٩٣.

ولم تكن القبائل غافلة عن هذه الأساليب فهذا (سويد بن حذاق)^(٣) يهجو عمرو بن هند وأخاه قابوس لظلمهم وجورهم وتقريظهم بين القبائل فيقول^(٤):

أبى القلب أن يأتي السدير وأهله وأن قيل عيش في السدير غزير^(٥)
 بها البق والحمى وأسد خفية وعمرو بن هند يعتدي ويجور
 جرى الله قابوس بن هند بفعلته بنا وأخاه غدره وآثاما
 بما فجرنا يوم العطيف وفرقا قبائل أحلافاً وحيأ حراما^(٦)

وهناك بعض القبائل إذا ما بلغت مرحلة من القوة فأنها تحاول أن تفرض سيطرتها على القبائل الأخرى، لكن ذلك لم يكن ليديم طويلاً لما ذكرناه سابقاً من تطلع القبائل بطبعها إلى الحرية وعدم الانقياد لسياسة، كما تحررت بكر من تسلط كليب رئيس تغلب بعد أن كان يحمي الأرض ويتعسف في حماها فأدى ذلك في النهاية إلى قتله وكان ذلك سبباً في حرب البسوس^(٧) وكما تحرر بني أسد من سيطرة (حجر بن عمرو)^(٨) بعد أن كان يأخذ الإتاوة منهم كل عام^(٩).

ولا نغفل أثر التجاور الجغرافي في تحديد سمات الصلات بين القبائل لأن أغلب التحالفات وكذلك الأيام التي كانت تحدث بين القبائل العربية قبل الإسلام كانت بين القبائل المتجاورة جغرافياً، لما يخلفه هذا التجاور من ارتباط المصالح فيؤدي للتحالف أو تضارب المصالح فينشأ القتال بين القبيلتين المتجاورتين، وكان للعرب قبل الإسلام عدد من الحكام الذين كان لهم دور بارز في إنهاء الكثير من الخصومات بين القبائل والأفراد على حد سواء إذ كانت الكثير من القبائل تلجأ في خصوماتها إلى هؤلاء الحكام الذين اشتهروا بالحكمة والدهاء والقدرة على فض الخصومات ومنع إراقة الدماء^(١٠).

النتائج

من خلال هذا البحث اهتدينا إلى بعض النتائج البسيطة وعلى النحو الآتي:

- (١) بني نهشل بن دارم بن مالك بن حنظله . ينظر: كحالة، عمر رضا، معجم قبائل العرب القديمة والحديثة، ط٢، دار العلم للملايين، بيروت، ١٩٦٨م. ج١، ص٣٧٠.
- (٢) هم بنو عجل بن لحم بن صعيب بن علي بن بكر بن وائل. ينظر: الطوسي، محمد بن الحسن، الخلافة، تح: علي الخراساني وآخرون، مؤسسة النشر الإسلامي، قم، ١٩٨٦م، ج١، ص٤٨٠.
- (٣) هو سويق بن حذاق العبدي من المعمرين في الجاهلية. ينظر: الصدوق، محمد بن علي بن الحسين بن بابويه القمي، كمال الدين وتمام النعمة، تح: علي أكبر الغفاري، مؤسسة النشر الإسلامي، قم، ١٩٨٤م، ص٥٦٦.
- (٤) العيثاوي، الأدب في الحيرة، ص١٤٥.
- (٥) السدير: قصر في الحيرة. ينظر: الزبيدي، تاج العروس، ج٣، ص٢٦١.
- (٦) يوم العطيف: لم نعثر له على ترجمة.
- (٧) ابن دريد، الاشتقاق، ص٣٣٨؛ البيهقي، البطولة في الشعر العربي، ص١١٦.
- (٨) حجر بن عمرو، هو والد الشاعر امرؤ القيس قتله علباء بن حارثة بن هلال، ينظر: ابن حزم، جمهرة أنساب العرب، ص١٩١.
- (٩) ابن شبة، تاريخ المدينة، ج٢، ص٥٤٤ - ٥٤٥؛ النص، العصبية القبلية، ص١٢٣.
- (١٠) للمزيد عن حكام العرب في الجاهلية ودورهم في تحسين الصلات بين القبائل. ينظر: البصري، نقائص جرير والفرزدق، ج١، ص١٩٤؛ ابن حبيب، المحبر، ص١٣٢-١٣٧؛ شيخ الربوة، محمد بن طالب الأنصاري الدمشقي، كتاب نخبة الدهر في عجائب البر والبحر، ط٢، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ١٩٧٩م، ص٣٣٢؛ أبو البقاء، المناقب المزبانية في أخبار الملوك الأسدية، ج١، ص١٧١؛ الألويسي، بلوغ الأرب، ج١، ص٣٠٣.

- ١- أكثر العوامل أثرا في الصلات بين القبائل هو العامل الاقتصادي والثأر، واضعف العوامل هو الدين والسياسة الخارجية.
- ٢- أفضل الوسائل للإصلاح والتقريب بين القبائل هي المصاهرات والديات.
- ٣- إن النظام القبلي في الحجاز فرضته البيئة القاسية وعدم وجود نظام سياسي موحد ولم يعرف العربي قبل الإسلام الانتماء والولاء لمجتمع أكبر من قبيلته.
- ٤- لم يكن انتقال القبائل في الحجاز بغير هدى ففي الغالب أن لكل قبيلة منازل ومراع خاصة ترتادها كل عام وتتحاشى القبائل الأخرى النزول فيها قدر الإمكان تجنباً للنزاع.
- ٥- إن أساس النظام القبلي عند العرب قبيل الإسلام كان قائماً على نظام الأبوة.
- ٦- معظم الأيام والتحالفات تكون بين القبائل المتجاورة في منازلها جغرافياً.
- ٧- أغلب التحالفات السياسية بين القبائل تتكون بحسب مصالح الفرقاء وواقعية المنحى لتفادي خسارة المعارك ولفترة قصيرة.
- ٨- لا تجعل القبائل النسب إلى عدنان أو قحطان أساساً للتحالف أو القتال بل قد تتحالف قبيلة قحطانية مع أخرى عدنانية ضد قبيلة قحطانية أو بالعكس.
- ٩- أفضل سياسة اتبعتها قبيلة هي سياسة قبيلة قريش القائمة على كسب ود جميع القبائل أو مهادنتها والسعي للصلح إن حدث توتر في الصلات معها وحالتها الاقتصادية ومكانتها من بيت الله الحرام هو من فرض عليها ذلك.
- ١٠- عند ظهور الإسلام كانت أغلب القبائل في الحجاز قد دخلت في حلف مع قبيلة أو أكثر.
- ١١- لم تكن سياسة أي قبيلة في الحجاز ثابتة وواضحة تجاه القبائل الأخرى بل أغلب سياسات تلك القبائل تتحكم فيها الظروف الطارئة، باستثناء قبيلة قريش التي كانت سياستها واضحة وثابتة على طول الخط ومع جميع القبائل.
- ١١- العامل الاقتصادي المتمثل بقحط الأرض وقلة الموارد الطبيعية وندرة المياه من العوامل الأساسية في رسم صورة الصلات الاقتصادية بين القبائل.
- ١٢- تعد مدة الأسواق الموسمية والأشهر الحرم بمثابة هدنة بين القبائل المتناحرة يتم خلالها تمويل القبائل لنفسها ومفاداة الأسرى وعقد الأحلاف وغيرها من النشاطات الأدبية والسياسية والاقتصادية.
- ١٣- أطول حلف عقد في الحجاز قبيل الإسلام كان بين قريش والاحابيش حيث استمر لأكثر من خمسين عاماً.

